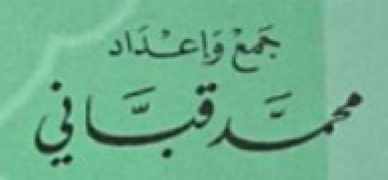
صفحات من التاريخ الإسلامي

تاريخ ورجال

للناشئة

الدولة العباسية

من الميلاد إلى السقوط



جمع وإعداد

محمد قباني

دار وحي القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

دار وحي القلم

❖ تستقبل تآليف الكتاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

❖ دار وحي القلم:

تجمع بين الأصالة والحداثة ، وتستوحي إصداراتها من وحي الواقع ، من وحي التجربة والممارسة ، ومن رصد ما يدبر لهذه الأمة ويراد بها.

❖ دار وحي القلم:

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشِعُ صورة الإسلام النقية في واقع يغصُّ بالأزمات والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها وأخلاقها.

❖ دار وحي القلم:

تتقدم - بمعونة الله تعالى - نحو عالم كتابي من نوع آخر- وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم - وقد أخذت الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

❖ دار وحي القلم: تدرك - أننا جميعاً في دار الممر لذا عليها أن تنير لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان ويسر ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المدير العام لدار وحي القلم .

الدَّولة العبَّاسِيَّة

مِنَ الميلاد إلى السُّقوط

الكتاب

الدّولة العبّاسيّة
مِنَ الميلاد إلى السُّقوط

جمع وإعداد

محمّد قبّاني

الطبعة الأولى 1427 هـ/2006م
عدد الصفحات: 168 القياس 17 × 24

الكتب التي تصدر عن الدار

تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



دمشق، سورية ص.ب: 30297
فاكس: 2455738(0096311)
هاتف: 396818(0096393)
E-mail: info@alkalam-sy.com - Site: www.alkalam-sy.com
بيروت - لبنان - هاتف 653666 (009661)
فاكس 653655 (009661) - ص.ب: 113/6501



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

تعتبر قراءة التاريخ من أمتع الأعمال، بينما تعتبر كتابتها من أشقها... ونحن إيماناً منا بحاجة أجيالنا الناشئة إلى أن تصطلح مع تاريخها المشرق، وتعود لتستلهم منه العبر وتطلع عليه مشرقاً نقياً على حقيقته، لا كما يُحب أعداؤنا أن يُظهروه لنا... من أجل ذلك أردنا أن يكون لنا في هذا الميدان وقفة وفي هذا الجهد نصيب، فأخرجنا سلسلتنا هذه والتي صدر منها حتى الآن: الوجيز في السيرة النبوية، والثاني: الوجيز في الخلافة الراشدة، والثالث: الدولة الأموية من الميلاد إلى السقوط، والرابع: الدولة العباسية من الميلاد إلى السقوط (والذي هو بين أيدينا).

هذا الكتاب يتكلم عن الخلافة العباسية وحضارتها، وتراجم خلفائها، والدول التي ظهرت خلالها وما في هذه الأحداث من عِبر.

والخلافة العباسية بشكل عام بدأت من عام: (١٣٢هـ) وانتهت (٦٥٦هـ) ـ تاريخ سقوط بغداد على يد هولاكو ـ.

والمؤرخون في تقسيمهم لعصور هذه الخلافة على منهجين، فمنهم من يقسمها إلى عصرين، ومنهم من يقسمها إلى ثلاثة عصور.

وقد اتبعتُ في هذا الكتاب المنهج الثاني ـ أي تقسيمها إلى عصرين ـ.

١ ـ **العصر الأول: من عام (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ).**

٢ ـ **العصر الثاني: من عام (٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ).**

أما بالنسبة للعصر الأول الممتد من عام (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ)، والذي هو عبارة عن قرن من الزمان تقريباً فقد كان العصر الذهبيَّ للخلافة العباسية، حيث تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية، والدنيوية وخلفاء هذا العصر تسعة هم:

١ ـ أبو العباس عبد الله (١٣٢ ـ ١٣٦هـ = ٧٤٩ ـ ٧٥٣م).

٢ ـ المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ = ٧٥٣ ـ ٧٧٥م).

٣ ـ المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ = ٧٧٥ ـ ٧٨٥م).

٤ ـ الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ = ٧٨٥ ـ ٧٨٦م).

٥ ـ الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م).

٦ ـ الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ = ٨٠٩ ـ ٨١٣م).

٧ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م).

٨ ـ المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢م).

٩ ـ الواثق: (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ = ٨٤٢ ـ ٨٤٧م).

ويمكن تقسيم هذا العصر (العباسي الأول) إلى ثلاثة عهود رئيسية هي:

١ ـ عهد التأسيس: من سنة: (١٣٢هـ =٧٤٩ م) إلى سنة (١٥٨هـ = ٧٧٥م)، ويشمل خلافة (أبي العباس) و (المنصور).

٢ ـ عهد الاستقرار: من سنة (١٥٨هـ = ٧٧٥م) إلى سنة (٢١٨هـ = ٨٣٣م)، ويشمل خلافة (المهدي) و(الهادي) و(الرشيد) و(الأمين) و(المأمون).

٣ ـ عهد القلق: من سنة (٢١٨هـ =٨٣٣م) إلى سنة (٢٣٢هـ = ٨٤٧م)، ويشمل (المعتصم بالله) و(الواثق بالله).

أما بالنسبة للعصر الثاني من عام (٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ)، والذي يمتد لأكثر من أربعة قرون، فقد قسم المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

١ ـ عصر نفوذ الأتراك: (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ).

٢ ـ عصر نفوذ البويهيين: (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ).

٣ ـ عصر نفوذ السلاجقة: (٤٤٧ ـ ٥٩٠هـ).

٤ ـ عصر ما بعد السلاجقة: (٥٩٠ ـ ٦٥٦هـ).

أما بالنسبة للعصر الأول (عصر نفوذ الأتراك): (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ)، فقد تعاقب على كرسي الخلافة ثلاثة عشرخليفة هم:

١ ـ المتوكل على الله «جعفر بن المعتصم» (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م).

٢ ـ المنتصرَ بالله «محمد بن المتوكل» (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ = ٨٦١ ـ ٨٦٢م).

٣ ـ المستعين بالله «أحمد بن المعتصم» (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ = ٨٦٢ ـ ٨٦٦م).

٤ ـ المعتز بالله «محمد أبو عبد الله بن المتوكل»
(٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ = ٨٦٦ ـ ٨٦٩م).

٥ ـ المهتدى بالله «محمد بن الواثق بن المعتصم»
(٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ = ٨٦٩ ـ ٨٧٠م).

٦ ـ المعتمد على الله «أحمد بن المتوكل بن المعتصم»
(٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ = ٨٧٠ ـ ٨٩٢م).

٧ ـ المعتضد بالله «أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل»
(٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠٢م).

٨ ـ المكتفى بالله «أبو محمد على بن المعتضد»
(٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ = ٩٠٢ ـ ٩٠٨م).

٩ ـ المقتدر بالله «أبو الفضل جعفر بن محمد»
(٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ = ٩٠٨ ـ ٩٣٢م).

١٠ ـ القاهر بالله «أبو منصور محمد بن المعتضد»
(٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ = ٩٣٢ ـ ٩٣٤م).

١١ ـ الراضي بالله «أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد»
(٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ = ٩٣٤ ـ ٩٤١م).

١٢ ـ المتقى لله «أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر»
(٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ = ٩٤١ ـ ٩٤٥م).

١٣ ـ المستكفى بالله «أبو القاسم عبد الله بن المكتفى»
(٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ = ٩٤٥ ـ ٩٤٦م).

وأما بالنسبة للعصر الثاني (عصر نفوذ البويهيين): (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ)، فقد تعاقب على كرسي الخلافة أربعة خلفاء هم:

١ ـ المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد»
(٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ = ٩٤٥ ـ ٩٧٤م).

٢ ـ الطائع لله «أبو بكر عبد الكريم بن المطيع»
(٣٦٣ ـ ٣٨١هـ = ٩٧٤ ـ ٩٩١م).

٣ ـ القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»
(٣٨١ ـ ٤٢٢هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣١م).

٤ ـ القائم بأمر الله «أبو جعفر عبد الله بن القادر»
(٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ = ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م).

وأما بالنسبة للعصر الثالث (عصر نفوذ السلاجقة): (٤٤٥ ـ ٥٩٠هـ)، فقد تعاقب على كرسي الخلافة ثمانية خلفاء هم:

١ ـ المقتدي بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله)
(٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ = ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م).

٢ ـ المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله)
(٤٨٧ ـ ٥١٢هـ = ١٠٩٤ ـ ١١١٨م).

٣ ـ المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر)
(٥١٢ ـ ٥٢٩هـ = ١١١٨ ـ ١١٣٥م).

٤ ـ الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد)
(٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ = ١١٣٥ ـ ١١٣٦م).

٥ ـ المقتفي لأمر الله (أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله)
(٥٣٢ ـ ٥٥٥هـ = ١١٣٨ ـ ١١٦٠م).

٦ ـ المستنجد بالله (أبو المظفر يوسف بن المقتفي)
(٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ = ١١٦٠ ـ ١١٧٠م).

٧ ـ المستضيء بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله)
(٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ = ١١٧٠ ـ ١١٧٩م).

٨ ـ الناصر لدين الله (أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله)
(٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ = ١١٧٩ ـ ١٢٢٥م).

وأما بالنسبة لعصر (ما بعد السلاجقة): ٥٩٠ ـ ٦٥٦هـ فقد تعاقب على كرسي الخلافة أربعة خلفاء هم:

١ ـ الناصر لدين الله (٥٩٠ ـ ٦٢٢هـ = ١١٩٤ ـ ١٢٢٥م).

٢ ـ الظاهر بأمر الله (أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله)
(٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ = ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦م).

٣ ـ المستنصر بالله (أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله)
(٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ = ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م).

٤ ـ المستعصم بالله (أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله)
(٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ = ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م).

حيث كان سقوط بغداد وانهيار الخلافة العباسية على يد هولاكو...

هذا وقد ظهرت أثناء الخلافة العباسية عدة دول، منها ما كان تابعاً لها، ومنها ما كان مستقلاً عنها، فقمتُ بترجمة موجزة لهذه الدول والظروف التي نشأت فيها.

وفي نهاية الكتاب وجدتُ أن انهيار الخلافة الإسلامية العباسية يكمن في أربعة أسباب، ذكرتها دون الخوض في تفاصيلها لأن في التوسع فيها توسع في الكتاب وهو في الأصل وجيز في موضوعه، وهذه الأسباب هي:

١ ـ نظام الخلافة.

٢ ـ الزواج من الأجنبيات.

٣ ـ تجنيد الموالي.

٤ ـ حياة الترف والسرف.

وقد ختمتُ الكتاب بأهمية الوازع الديني، وأثره في بناء الدولة الإسلامية وفي انهيارها أيضاً من حيث قوته وضعفه في نفوس الحكام بشكل خاص، وعامة الشعب بشكل عام...

والحمد لله رب العالمين...

محمد محمد رسمي قباني

الخلافة العباسية

ينتسب خلفاء «بنى العباس» إلى جدهم «العباس بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ، الذي عاش في «مكة» وأسلم بها، وكانت له مكانته عند رسول الله ﷺ.

وقد أنجب «العباس» عددًا من الأبناء، أشهرهم: «عبد الله بن عباس» الذي أُطلق عليه «ترجمان القرآن» و«حَبْر الأمة» لسعة علمه وحدة ذكائه.

ترك «عبد الله» كثيرًا من الأبناء، منهم «على بن عبد الله» الذي يُقال له «السجَّاد» لكثرة عبادته، وأنجب «السجَّاد» أولادًا كثيرين، أشهرهم «محمد بن علي»، الذي نظم الدعوة (العباسية) وخرج بها إلى حيز الوجود، وأحاط تحركاته بجو من السرية والكتمان، حتى أطلق على المرحلة التي مرت بها الدعوة العباسية في عهده «المرحلة السرية»، وتمتد من سنة (١٠٠هـ = ٧١٨م) إلى سنة (١٢٩هـ = ٧٤٦م)، وتحركت الدعوة فيها من ثلاثة أماكن هي:

١ ـ **الحميمة**: وهى قرية صغيرة منعزلة في جنوب «الشام»، اتخذتها الأسرة العباسية مقراً لها.

٢ ـ **(الكوفة)**: وتُعد المركز الرئيسيَّ لنشاط الدعاة العباسيين، وتتوسط بلاد «الشام» و«العراق» و«خراسان».

٣ ـ **خراسان**: حيث نجح الدعاة (العباسيون) في اجتذاب الآلاف إليهم.

وبدأت الدعوة بجماعة تُسمَّى «النقباء»، قاموا بتكوين «مجلس شورى» برئاسة «سليمان بن كثير الخزاعي»، وكان مركز الدعوة في «الكوفة» يتلقى التعليمات من مقر البيت العباسي في «الحميمة»، ويرسلها إلى أنصار الدعوة في كل مكان، وخاصة «خراسان».

وعقب وفاة الإمام «محمد بن علي» سنة (١٢٥هـ = ٧٤٢م) تولى ابنه «إبراهيم» ـ المعروف بالإمام ـ شؤون الدعوة، وقد نشطت في عهده، واتخذت اللون الأسود شعارًا لها.

وقد تهيأ للدعوة العباسية أسباب النجاح منذ أن أسندت مهمة الإشراف على الدعوة في «خراسان» إلى «أبى مسلم الخراساني»، الذي جمع حوله الأنصار والأعوان، وخاض بهم ساحات القتال محققًا العديد من الانتصارات، وقام بدور مهم في قيام «الدولة العباسية».

وقد واجه العباسيون بزعامة «أبى مسلم» قوى مختلفة في «خراسان»، فور إعلان ثورتهم ليلة الخميس (٢٥من رمضان سنة ١٢٩هـ = ٩من يونيو سنة٧٤٧م)، وتمثلت هذه القوى في «نصر بن سياد» الوالي الأموي، وقبائل «اليمن» و«ربيعة»، و«الخوارج»، لكن «أبا مسلم» استطاع بذكائه، ودهائه أن يوقع بينها مستغلاً العنصر القبلي وإثارة العصبية بين أفرادها.

وبعد معارك كثيرة استطاعت قوات «أبى مسلم الخراساني» أن تدخل مدينة «مرو» عاصمة إقليم «خراسان»، ثم استولت على «همدان» و«نهاوند» و«حلوان» و«خانقين» وغيرها، حتى دخلت «العراق»، وكان وراء ذلك النجاح الكبير الذي أحرزه العباسيون في نشاطهم الدعائي والعسكري أسباب كثيرة، منها:

١ ـ الدعوة الدائبة والمنظمة التي استمرت ما يقرب من ثلاثين سنة على أيدي دعاة مُدربين.

٢ ـ كثرة الجيوش العباسية واندفاعها لاكتساح القوات (الأموية).

٣ ـ القيادة الحكيمة التي استطاعت تنظيم أنصار الدعوة العباسية، وتسليحهم وتوجيههم إلى ميادين القتال المختلفة.

٤ ـ تمزق صفوف الجيوش الأموية بسبب العصبية القبلية.

٥ ـ نجاح العباسيين في جذب مجموعة من القادة الأكفاء، الذين أداروا المعركة باقتدار ضد الأمويين، ومنهم «أبو مسلم الخراساني»، و«أبو سلمة الخلال» كبير الدعاة العباسيين بالكوفة، و«ابن شبيب الطائي» الذي قاد الجيوش العباسية المتجهة إلى «العراق».

انتقلت الأسرة العباسية من «الحميمة» سراً إلى «الكوفة»، بعد إلقاء القبض على «إبراهيم الإمام» وقتله في أحد سجون «دمشق»، وكان قد أوصى بتولية أخيه «عبد الله» شؤون الدعوة.

وفي «الكوفة» أقامت الأسرة العباسية عند «أبى سلمة الخلال» كبير الدعاة أربعين يومًا حتى تهيأت الظروف لمبايعة أول خليفة عباسي و هو «عبد الله بن محمد».

النتائج التي ترتبت على انتقال الحكم إلى بني العباس

ترتب على انتقال الحكم إلى بني العباس النتائج التالية:

أولاً ـ نقل العاصمة من الشام إلى العراق وانتصار أهل العراق على أهل الشام بعد صراع دام أكثر من قرنين.

ثانياً ـ انتقال النشاط التجاري إلى العراق، وربط التجارة البرية ببغداد والبحرية بالبصرة.

ثالثاً ـ قيام صراع بين أشراف العرب وأشراف الموالي من الفرس على نيل مناصب الدولة، وإيثار الموالي بهذه المناصب.

رابعاً ـ اشتداد مقاومة الناقمين من العلويين والخوارج وتوالي ثوراتهم على الحكم العباسي، وانشغال الدولة بقمعها مما أدى:

أ ـ إلى توقف الفتوحات وتحول الدولة العباسية من موقف الهجوم ـ وهو موقف الدولة الأموية ـ إلى موقف الدفاع، واعتبار الحدود التي وصل إليها الأمويون في فتوحاتهم، حدوداً نهائية والوقوف عندها والاكتفاء بالدفاع عنها.

ب ـ عجز الدولة عن ضبط الحكم في الولايات الإفريقية، مما اضطرها إلى السكوت والاعتراف بحالة راهنة قضت بانتزاع بعض الأقاليم من سيادة الدولة، كما فعل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الملقب بالداخل، حين انتزع الأندلس سنة (١٣٨هـ)، وأقام فيها إمارة مستقلة تحولت إلى خلافة سنة (٣٠٠هـ) في عهد عبد الرحمن الناصر، وكما فعل إدريس الأول، بعد نجاته في وقعة (فخ) سنة (١٦٩هـ)، وإقامته في المغرب دولة علوية مستقلة، كذلك أدى اختلال الأمور في المغرب الأدنى (تونس) إلى تولية إبراهيم بن الأغلب عليه ومنحه الاستقلال الذاتي سنة (١٨٤هـ)، وإنشائه دولة بني الأغلب، لتحول دون امتداد دولة

الأدارسة نحو المشرق. وإلى جانب هذه الدول المستقلة التي انفصلت سياسياً وإدارياً عن دولة بني العباس، نشأت في إفريقية إمارات مستقلة. كأمارة بني مدرار التي أنشأها في (سجلماسة) أبو القاسم سمغو سنة (١٥٥هـ)، والإمارة الرستمية التي أنشأها عبد الرحمن بن رستم في (تاهرت) سنة (١٦٠هـ)، وكانت كلا الإمارتين تدينان بمذهب الخوارج.

خامساً ـ تخصيص بعض الولاة بإقليم من أقاليم الدولة استقلالاً، مكافأة لهم لقيامهم بخدمة الدولة، كما فعل المأمون بتخصيص طاهر بن الحسين بإقليم خراسان إمارة مستقلة يتوارثها أبناؤه من بعده، وذلك مكافأة له. . .

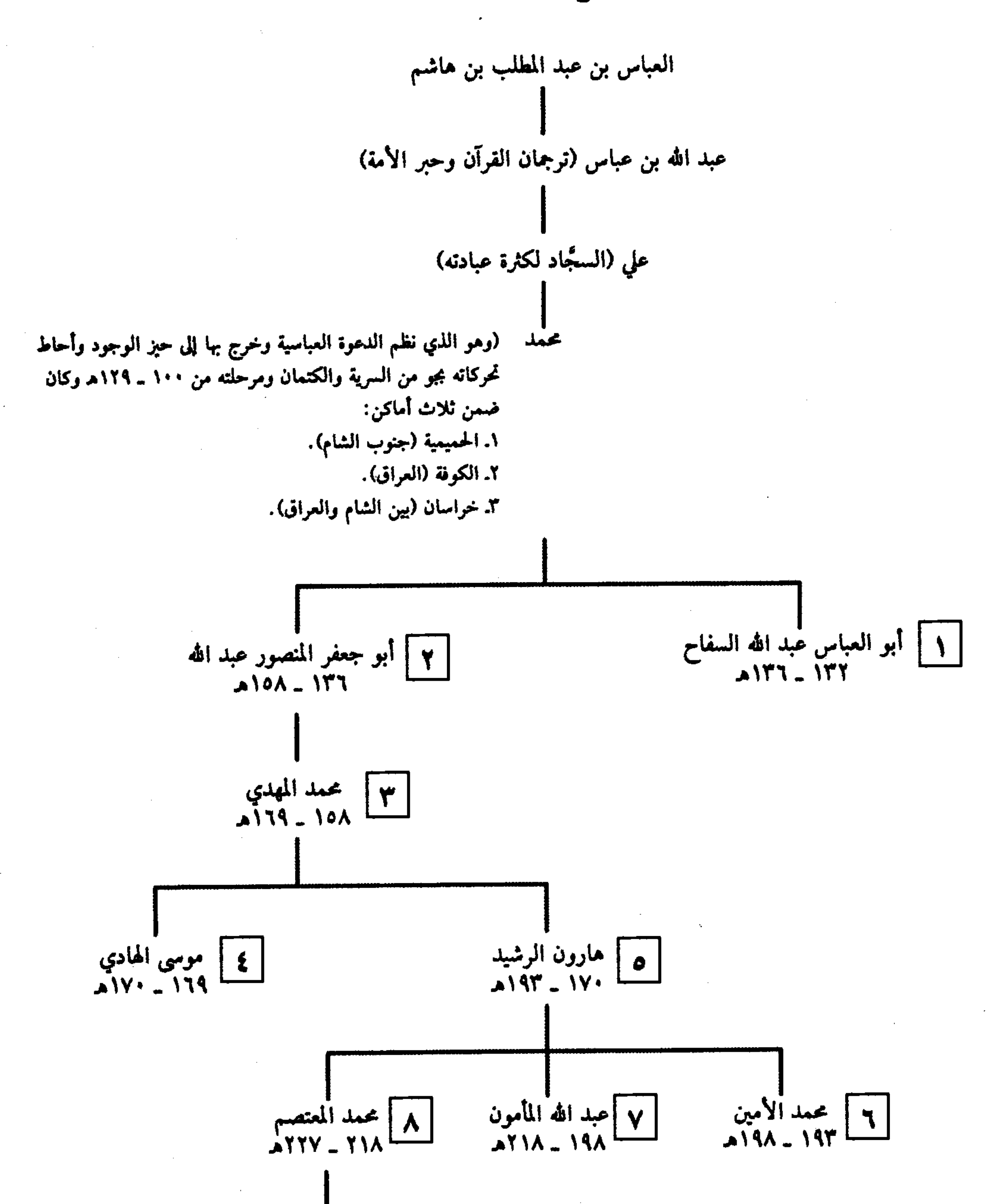





العصر العباسي الأول

(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ = ٧٤٩ ـ ٨٤٧م)

العصر العباسي الأول
(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ)
وخلفائه ٩



العصر العباسي الأول

يمتد العصر العباسي الأول قرنًا من الزمان، من سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م) إلى سنة (٢٣٢هـ = ٨٤٧ م)، ويعد العصر الذهبي للخلافة العباسية؛ حيث تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية والدنيوية.

وخلفاء هذا العصر تسعة، هم:

١ ـ أبو العباس عبد الله (١٣٢ ـ ١٣٦هـ = ٧٤٩ ـ ٧٥٣م).

٢ ـ المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ = ٧٥٣ ـ ٧٧٥م).

٣ ـ المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ = ٧٧٥ ـ ٧٨٥م).

٤ ـ الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ = ٧٨٥ ـ ٧٨٦م).

٥ ـ الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م).

٦ ـ الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ = ٨٠٩ ـ ٨١٣م).

٧ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م).

٨ ـ المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢م).

٩ ـ الواثق: (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ = ٨٤٢ ـ ٨٤٧م).

الخليفة الأول

أبو العباس

(١٣٢ ـ ١٣٦هـ = ٧٤٩ ـ ٧٥٣م)

هو «عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم»، ولد سنة (١٠٠هـ = ٧١٨م) تقريباً.

بويع «أبو العباس» في «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م).

واستمر في الحكم أربع سنوات، استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده..

موقف العباسيين من الأمويين:

مما لاشك فيه أن هناك بعض التجاوزات التي حدثت في إقليم «الشام» على يد الوالي العباسي «عبد الله بن علي»، عم الخليفة «أبى العباس»؛ حيث تعقَّب الأمويين في كل مكان وقتل كثيراً منهم، مما دفع بعضهم إلى الفرار إلى مناطق بعيدة، كما فعل «عبد الرحمن بن معاوية» ـ صقر قريش ـ الذي فرَّ إلى «المغرب» ومنها إلى «الأندلس»؛ حيث أسس دولة أموية هناك سنة (١٣٨هـ = ٧٥٥م)، كما حاول بعضهم الآخر التخفي وطلب العفو.

ومن ناحية أخرى لم يقف أنصار الأمويين وأعوانهم مكتوفي الأيدي أمام انتصارات العباسيين، وما ارتكبه بعض ولاتهم من مذابح تجاه البيت الأموي، فقاموا بعدة ثورات في أماكن متفرقة، إحداها «بالبلقاء» و«حوران» سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م)، وأخرى في «قِنَّسرين»، وثالثة في «دمشق»، لكن قوات العباسيين استطاعت الانتصار عليها والسيطرة على الموقف.

موقف الخلافة من بعض زعماء الدعوة العباسية:

واجهت «الدولة العباسية» قبيل إعلانها وفى بداية قيامها انحراف بعض المسؤولين فيها، ولم تكن الظروف السياسية التي صاحبت قيام «الدولة العباسية»

تسمح بالتخلّص من هؤلاء، فلما بويع «أبو العباس» بالخلافة وبدأت الدولة تأخذ طريقها إلى الاستقرار، قامت بمعاقبة هؤلاء، وكان أول من عوقب «أبا سلمة الخلال» بسبب عدم تحمسه كثيراً لانتقال أفراد البيت العباسي من «الحميمة» إلى «الكوفة»، ولم يأذن لهم بدخول «الكوفة» إلا بعد فترة، وحاول نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي إلا أنه فشل في ذلك، كما حاول قتل «أبى العباس» وفشل في ذلك أيضاً، فلما استقرت أمور الدولة استقر رأي أفراد البيت العباسي على أخذ رأي «أبي مسلم الخراساني»، الذي وافق على التخلص منه، فتم اغتياله وأعلنت القيادة العباسية أن جماعة من أعداء الدولة هم الذين نفذوا هذه المؤامرة.

كما قام «أبو مسلم الخراساني» والي إقليم «خراسان» بالتخلص من أحد كبار الدعاة، وهو «سليمان بن كثير»، الذي كان يُعرف بنقيب النقباء، عقب اتهامه بالاتصال بأحد أبناء البيت العلوي وتحريضه على الثورة ضد البيت العباسي.

وفاة الخليفة:

وتُوفى الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» بالأنبار في (١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ = ٩ من يونيو سنة ٧٥٤م)، وعمره نحو ست وثلاثين سنة.

الخليفة الثاني
أبو جعفر المنصور

(١٣٦ ـ ١٥٨هـ = ٧٥٣ ـ ٧٧٥م)

هو «عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي»، وكنيته «أبو جعفر».

ولد سنة (٩٥هـ = ٧١٤م) في قرية «الحميمة» بالشام، وتربى وسط كبار الرجال من «بنى هاشم»، فنشأ فصيحاً عالماً بسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعراً ونثراً وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار والتنقل.

ولما تولى أخوه «أبو العباس» الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان ينوب عنه في الحج، كما أوصى «أبو العباس» قبيل وفاته مباشرة بولاية عهده لأخيه «أبى جعفر»، الذي كان غائباً في موسم الحج، فلما تُوفِّى «أبو العباس» قام ابن أخيه «عيسى بن موسى» بأخذ البيعة لأبى جعفر من «بني هاشم» وغيرهم، وأرسل إلى عمه «أبى جعفر» بوفاة أخيه ومبايعته بالخلافة.

ولما وصل «أبو جعفر» إلى «الأنبار» استكمل أخذ البيعة من القادة والرؤساء، ثم خطب فيهم مبيِّناً سياسته في إدارة الدولة في النقاط الآتية:

١ ـ زهده في منصب الخلافة، وأنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يرغب فيه.

٢ ـ تعهده بتنفيذ ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣ ـ تعهده بإقرار العدل ورفع الظلم عن الناس، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها.

يُعدُّ «أبو جعفر المنصور» المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وقد واجه بحزم واقتدار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح في السيطرة عليها والقضاء على

القائمين بها، ومنها: ثورة عمه «عبد الله بن علي»، وتمرد «أبي مسلم الخراساني»، وثورة «محمد النفس الزكية»، وثورات الفرس، وحركات (الخوارج).

أولاً: ثورة عبد الله بن علي:

يُعدُّ «عبد الله بن علي» - عم الخليفة «أبي جعفر المنصور» - من الشخصيات العسكرية البارزة في «الدولة العباسية»، وقد شارك مثل غيره من أفراد البيت العباسي، في النشاط العسكري والسياسي حتى قامت «الدولة العباسية»، وتولى إمارة «الشام»، فلما تُوفِّي الخليفة الأول «أبو العباس»، رفض «عبد الله بن علي» مبايعة الخليفة الجديد «أبي جعفر المنصور»، وأعلن أنه أحق منه بمنصب الخلافة، وأن الخليفة «أبا العباس» كان قد وعده بذلك، ولم يكن هذا صحيحاً؛ لأن الخليفة «أبا العباس» كتب وصيته قبل وفاته بتولية أخيه «أبي جعفر» الخلافة، كما أنه لم يرد عن أحد من أفراد البيت العباسي ما يؤيد دعوى «عبد الله بن علي».

وقد أحدث هذا خللاً شديداً في كيان البيت العباسي، فحاول «أبو جعفر» رأب هذا الصدع، وأرسل إلى عمه عدة رسائل يدعوه إلى الدخول في طاعته، ولزوم الجماعة، إلا أن عمه رفض ذلك، فأرسل إليه «أبو جعفر» قائده «أبا مسلم الخراساني» على رأس جيش كبير، ودارت معركة فاصلة بين الجيشين في (جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ = نوفمبر سنة ٧٥٤م)، انتهت بانتصار جيش «أبي مسلم» وفرار «عبد الله بن علي» إلى «البصرة»، ثم استطاع الخليفة «أبو جعفر» إحضاره منها إلى «الكوفة» وسجنه حتى مات سنة (١٤٧هـ = ٧٦٤م).

ثانياً: تمرد أبي مسلم الخراساني:

اختلفت المصادر التاريخية في بيان أصل «أبي مسلم الخراساني»، والراجح أنه من أصلٍ فارسي، وقد التحق في بداية أمره بخدمة «إبراهيم الإمام» الذي أُعجب به ووثق فيه، واستعان به في أموره المهمة، وكان له دور بارز في نجاح الدعوة العباسية، وقيام دولتها.

ورغم الجهود والأعمال التي قام بها «أبو مسلم» فإنه ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة في حق الخلافة العباسية منها:

انفراده بالحكم في «خراسان»، وتجاهله شيوخ الدعوة العباسية ونقباءها هناك، وعدم تنفيذ أوامر الخليفة «أبي العباس»، ثم تجاهله لأبي جعفر في مناسبات كثيرة، وتحريضه ابن أخيه «عيسى بن موسى» على الثورة والاستئثار بمنصب الخلافة، وغير ذلك.

وقد حاول الخليفة «أبو جعفر» ـ في البداية ـ معالجة الأمور بهدوء، فاستدعى «أبا مسلم» من «خراسان» إلا أنه رفض الحضور فواصل الخليفة مراسلاته، واستعان ببعض الزعماء للضغط على «أبي مسلم» للحضور إلى مقر الخلافة في «العراق»، إلا أن «أبا مسلم» رفض ذلك، فأرسل الخليفة إليه يهدده ويتوعده إن لم يرضخ ويستجب لأمره، وبعد مشاورات بين «أبي مسلم» وأنصاره استجاب وحضر إلى قصر الخلافة، فعدد عليه الخليفة «أبو جعفر» ما ارتكبه من أخطاء في حق الدولة، ثم أمر بقتله.

ثالثاً: ثورة محمد النفس الزكية:

هو «محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب»، المعروف بالنفس الزكية، زعيم البيت العلوي والشيعة، ومنذ مقتل الإمام «علي» ـ كرم الله وجهه ـ والشيعة يحاولون الوصول إلى مقعد الحكم عن طريق الثورات والخروج على السلطة، باعتبارهم أصحاب الحق الشرعي.

وبقيام «الدولة العباسية» وتولِّي العباسيين الخلافة انتقل صراع العلويين على الخلافة من محاربة الأمويين إلى محاربة أبناء عمومتهم العباسيين.

وعلى الرغم من أن أسرة «محمد النفس الزكية» لم تتخذ موقفاً عدائياً واضحاً في بدء الخلافة العباسية إلا أن الأمر تغير حين تولَّى «أبو جعفر المنصور» الخلافة وبدأ يتعقب «محمداً النفس الزكية» وأخاه «إبراهيم» اللذين اختفيا وأخذا يعملان سراً في الدعوة لنفسيهما والخروج على «الدولة العباسية».

ولما فشل «أبو جعفر المنصور» في القبض على «محمد النفس الزكية» أمر بالقبض على عدد كبير من أفراد أسرته، وحملهم إلى سجون «العراق» وعذَّبهم لإرغام «محمد النفس الزكية» على الظهور، وقد نجح «أبو جعفر» في ذلك؛ فظهر

«محمد النفس الزكية» في «المدينة المنورة» في (رجب سنة ١٤٥هـ = سبتمبر سنة ٧٦٢م) وقتله العباسيون هناك، كما قتلوا أخاه «إبراهيم» بالعراق، وكثيراً من أهلهما.

رابعاً: ثورات الفرس:

واجهت الخلافة العباسية في عهد «أبي جعفر» عدة ثورات فارسية، كانت تعبيراً عن معارضة بعض العناصر الفارسية للخلافة الإسلامية، ومن هذه الثورات:

ـ حركة سنباذ سنة (١٣٧هـ = ٧٥٤م):

حيث قاد «سنباذ» ـ وهو أحد أتباع «أبي مسلم» ـ حركة ثورية للثأر لمقتل «أبي مسلم الخراساني»، ومحاربة الإسلام، وأحس الخليفة «المنصور» بخطر هذه الحركة فأرسل جيشاً كبيراً استطاع القضاء على قوات «سنباذ» وقتله وهو في طريقه لاجئاً إلى حاكمُ «طبرستان».

ـ حركة الراوندية (١٤١هـ = ٧٥٨م):

وهم قوم من أهل «خراسان»، سُموا بذلك نسبة إلى قرية «راوند» القريبة من «أصفهان»، وكانوا من أتباع «أبي مسلم الخراساني»، إلا أنهم زعموا أن ربهم الذي يرزقهم ويطعمهم ويسقيهم هو «المنصور»، وأعلنوا إيمانهم بفكرة «تناسخ الأرواح» واستطاعوا دخول مدينة «الهاشمية»، عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، وهاجموا قصر الخلافة فتصدَّى لهم بعض الجنود البواسل، وعلى رأسهم «معن بن زائدة الشيباني»، واستطاعوا القضاء على هذه الحركة.

ـ حركة أستاذ سيس سنة (١٥٠هـ = ٧٦٧م):

«أستاذ سيس» رجل فارسي ادَّعى النبوة، وقاد حركة تهدف إلى تخليص بلاد فارس من قبضة العباسيين، واستطاع بجيوشه الضخمة بسط نفوذه على مناطق «سجستان» و«هراة» و«كور خراسان» وغيرها، فحشدت له الخلافة العباسية قوات ضخمة بقيادة «خازم بن خزيمة التميمي»، استطاعت القضاء على هذه الحركة، وانتهى الأمر بالقبض على «أستاذ سيس» وإعدامه.

خامساً: حركات الخوارج:

نظر الخوارج إلى العباسيين على أنهم مغتصبون للخلافة التي ينبغى أن يتقلدها أجدر المسلمين بها بالانتخاب، بغض النظر عن نسبه، ومن ثم شهد العصر العباسي الأول عدداً من حركات الخوارج، بغرض القضاء على الخلافة العباسية، ومنها:

١ ـ ثورة ملبد بن حرملة الشيبانى سنة (١٣٧هـ = ٧٥٤م) بأرض الجزيرة (ديار بكر):

وشكلت خطراً كبيراً على العباسيين، إلا أن قائدهم «خازم بن خزيمة» استطاع القضاء عليها.

٢ ـ ثورة حسان بن مجالد الهمدانى بالموصل سنة (١٤٨هـ = ٧٦٥م):

انتهت بالفشل لتفرق أنصاره عنه.

وفاة المنصور:

تُوفي «المنصور» في (٦ من ذى الحجة سنة ١٥٨هـ = ٧ من أكتوبر سنة ٧٧٥م)، وهو في طريقه إلى الحج.

وقد أشار «ابن الأثير» في كتابه «الكامل في التاريخ» إلى أن «المنصور» كان يجعل نهاره لتصريف أمور الدولة، فإذا صلَّى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلَّى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد إليه من رسائل البلاد، حتى يمضي ثلث الليل الأول فينام، ثم يقوم في الثلث الأخير فيتوضأ ويصلي حتى يطلع الفجر، فيصلي بالناس، ثم يجلس في ديوانه لتصريف أمور البلاد، وهكذا يقضي وقته.




الخليفة الثالث

محمد المهدي

(١٥٨ ـ ١٦٩هـ = ٧٧٥ ـ ٧٨٥م)

هو «محمد بن عبد الله بن محمد» وُلد بالحميمة سنة (١٢٦هـ =٧٤٣م)، وقد هيأه والده «المنصور» وأعده ليكون جديراً بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراية بفنون الحرب وأساليب الإدارة.

وقد أوصى «المنصور» ابنه وولي عهده «محمداً» وصية جامعة، قبيل وفاته تضمنت:

١ ـ التمسك بأن تظل «بغداد» عاصمة للخلافة.

٢ ـ الاهتمام بأهل بيته وحاشيته وأهل «خراسان» لدورهم في قيام الدولة.

٣ ـ تقوى الله وإبعاد النساء عن السياسة.

٤ ـ تجنب إهدار دماء المسلمين، ومعاقبة المفسدين والملحدين وتتبعهم.

٥ ـ الاستعداد المستمر بالقوة والسلاح، وأن يباشر الأمور بنفسه.

وعقب وفاة «المنصور» بويع «المهدي» بيعة خاصة من قبل الزعماء بمكة، ثم بايعه جمهور المسلمين في «بغداد» في (ذى الحجة سنة ١٥٨هـ = أكتوبر سنة ٧٧٥م).

سياسة المهدى العامة:

اختلفت سياسة «المهدي» عمن سبقه، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعيناً بالقضاة، وأمر بالإنفاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتماماً خاصاً بالحرمين الشريفين وبكسوة «الكعبة».

وقد عفا «المهدي» عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج سنة (١٦٠هـ = ٧٧٧م) وزع أموالاً كثيرة على أهل «مكة» و«المدينة»، وأصدر عفواً عاماً عمن عاقبهم «المنصور» من أهل «الحجاز»؛ لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار، وكوَّن منهم حرسه الخاص، كما قام ببث العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أي تحرك معادٍ للدولة، ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل «عيسى بن زيد بن علي» و«علي بن العباس بن الحسن» القيام بثورة ضد الخلافة العباسية، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلهما الموت.

سياسة المهدي تجاه الخوارج:

واجه «المهدي» عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بحزمه وسرعة مواجهته، منها:

١ - ثورة «يوسف بن إبراهيم البرم» في «خراسان» سنة (١٦٠هـ = ٧٧٧م).

٢ - حركة «عبدالسلام بن هاشم اليشكري» في «قنسرين» سنة (١٦٠هـ = ٧٧٧م).

٣ - حركة الخوارج بالموصل بزعامة «ياسين الموصلي التميمي» سنة (١٦٨هـ = ٧٨٤م).

الحياة الاجتماعية فى عهد المهدي:

ترك «المنصور» بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم، قام «المهدي» بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم، واللهو واللعب، كما اتبعه الناس في حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب، وكان «المهدي» أول خليفة يُحمل إليه الثلج إلى «مكة» في الحج، كما كان مترفاً في ملبسه ومأكله.

وفاة المهدي:

تُوفِّي «المهدي» سنة (١٦٩هـ = ٧٨٥م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد قضى في الحكم إحدى عشرة سنة.

الخليفة الرابع

موسى الهادي

(١٦٩ ـ ١٧٠هـ = ٧٨٥ ـ ٧٨٦م)

هو «موسى» ابن الخليفة «المهدي»، تولى الخلافة في (٢٢ من المحرم سنة ١٦٩هـ = ٥ من أغسطس سنة ٧٨٥م).

سياسته:

اتصف الخليفة «الهادي» بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل أمه «الخيزران» في سياسة الدولة كما كانت تفعل في عهد والده «المهدي».

وقد واجه «الهادي» مشاكل خطيرة على رأسها ثورة البيت العلوي بقيادة «الحسين بن علي بن الحسن» في «المدينة» سنة (١٦٩هـ = ٧٨٥م)، إلا أن «الهادي» أرسل جيشاً على وجه السرعة نجح في القضاء عليها في (٨ من ذى الحجة سنة ١٦٩هـ =١١من يونيو سنة ٧٨٦م) وحاول «الهادي» نقل ولاية العهد من أخيه «الرشيد» إلى ابنه «جعفر»، الذي لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره مخالفاً وصية والده في ترتيب ولاية العهد، إلا أن الموت عاجله فلم يتحقق له ما أراد.

وفاته:

تُوفِّي «الهادي» ليلة الجمعة، (نصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ = نصف أغسطس ٧٨٦م) وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً.

الخليفة الخامس

هارون الرشيد

(١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م)

هو «هارون بن محمد المهدي»، وُلد بالري في آخر (ذى الحجة سنة ١٤٥هـ = فبراير سنة ٧٦٣م)، وتولى الخلافة فى الليلة التى مات فيها أخوه «الهادى» وعمره اثنان وعشرون عاماً.

ويُعدُّ «الرشيد» أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتاً، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقاً وغرباً.

سياسته العامة:

لما استقر «الرشيد» في «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية قلَّد «يحيى البرمكي» منصب الوزارة، وفوضه في إدارة شؤون البلاد، ومنحه لقب «أمير»؛ فكان أول من لُقِّب بذلك من الوزراء الفرس في «الدولة العباسية».

اهتم «الرشيد» بإقامة العدل فى الناس، فأمر بإعادة الأراضي التي اغتصبها أهل بيته فى عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها، ورفع الظلم عن المسجونين ظلماً، وقسّم أموال ذوى القربى بين «بنى هاشم» كلهم بالعدل، وأصدر عفواً عن المعتقلين السياسيين، فأخرج من كان فى السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى «المدينة»، ومنحهم الرواتب، كما أجرى «الرشيد» تعديلات واسعة فى مناصب الدولة فى كل من «مكة» و«المدينة» و«الطائف» و«الكوفة» و«خراسان» و«أرمينية» و«الموصل».

موقفه من الشيعة:

حاول «الرشيد» في الأعوام الأولى من خلافته مسالمة العلويين والعفو عنهم، إلا أنه كان يخشى خطورة اثنين منهم فرًّا عقب موقعة «الفخ»، أما أولهما فهو

«إدريس بن عبد الله» الذي نجح في الوصول إلى «المغرب الأقصى» وكون «دولة الأدارسة»، وأما الآخر فهو «يحيى بن عبد الله» الذي فرَّ إلى «بلاد الدَّيلم» وتجمع حوله المتشيعون لآل البيت، فأرسل إليه «الرشيد» جيشاً بقيادة «الفضل بن يحيى»؛ لإرجاعه إلى حظيرة الخلافة، فعاد به إلى «بغداد» حيث لقيه «الرشيد» بكل ما أحب، إلا أن الحاسدين سرعان ما وشوا به عند الخليفة بسبب قيام الكثير من العلويين بزيارته والتودد إليه، فأمر «الرشيد» بسجنه حتى مات. وقد استطاع بعض رجال الحاشية الذين يكنون العداء للبيت العلوي تعميق خوف «الرشيد» من زعماء البيت العلوي واستغلال ذلك للقضاء عليهم، كما حدث مع «موسى الكاظم»؛ حيث أمر «الرشيد» بحبسِه حتى أدركه الموت.

موقفه من الخوارج:

واصل الخوارج نشاطهم العسكري ضد الخلافة العباسية في عهد «الرشيد»، فقام «الوليد بن طريف الخارجي» بحركة تمرد وعصيان في «العراق» واستولى على أماكن عديدة، إلا أن «الرشيد» أرسل إليه جيشاً بقيادة «يزيد الشيباني» استطاع القضاء على هذه الحركة وقتل قائدها في (رمضان سنة ١٧٩هـ = نوفمبر سنة ٧٩٥م).

موقفه من البرامكة:

تمتع البرامكة في بداية عهد «الرشيد» بالسلطة والجاه والنفوذ، وتقلدوا مناصب الدولة المهمة، حتى إذا جاء شهر (صفر سنة ١٨٧هـ = يناير سنة ٨٠٣م)، فأمر «الرشيد» بسجنهم، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، فيما عرف في التاريخ بنكبة البرامكة.

وقد تضافرت عدة عوامل كانت سبباً فيما فعله «الرشيد» بالبرامكة، منها:

١ ـ اتهامهم بالزندقة والخروج عن الإسلام باعتبارهم من أصل مجوسي.

٢ ـ محاولتهم إبعاد العرب عن المناصب المهمة وتقديمهم الفرس لشغلها.

٣ ـ استبدادهم بالأمور وإظهارهم ما لا تحتمله نفوس الملوك.

٤ - قيام الحاسدين والحاقدين بتضخيم أخطاء «البرامكة».

٥ - أن «الرشيد» كلف «جعفر بن يحيى البرمكي» بقتل رجل من آل «أبي طالب» فلم يفعل.

المجتمع فى عهد الرشيد:

ازدهر المجتمع في عهد «الرشيد» اقتصادياً وثقافياً وعلمياً وعمرانياً.

فقد تدفقت الأموال من كل مكان، واتسعت رقعة الدولة واستقر الأمن بها وازدهرت التجارة، وأصبحت «بغداد» قبلة للطامحين في الثراء والترف، كما قصدها النوابغ والعباقرة والصناع المهرة من سائر الشعوب، وشيِّدت فيها القصور الرائعة والمساجد الكبيرة، وانتشرت الحدائق العامة، والأسواق المتخصصة كسوق الذهب والنحاس، والنسيج وغير ذلك.

وكان «الرشيد» على قدر عالٍ من الثقافة والمعرفة، واجتمع عنده أقطاب العلم والعمل والسياسة والحرب مثل: «أبي يوسف» تلميذ الإمام «أبي حنيفة»، و«الأصمعي» الراوية المشهور، و«أبي العتاهية» و«أبي نواس» من الشعراء، وداهية السياسة «يحيى البرمكي» وابنيه «الفضل» و«جعفر»، ومن المغنين «إبراهيم الموصلي» وابنه «إسحاق»، ومن الموسيقيين «زلزل» و«برصوم»، وغيرهم من أمراء العباسيين القادة والخطباء والشعراء والساسة.

وفاة الرشيد:

أثناء سفر «الرشيد» من «بغداد» إلى «خراسان» اشتد المرض عليه، وتُوفِّي صباح يوم الجمعة (٢ من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ = ٢٣ من مارس سنة ٨٠٩م)، وعمره خمس وأربعون سنة.

وقد حكم «الرشيد» البلاد ثلاثة وعشرين عاماً، بلغت فيها «الدولة العباسية» ذروة مجدها، وقد تحدث عنه كثير من المؤرخين، فقال عنه «الطبري»: «غزا سبع مرات، وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحر». وقال عنه «ابن خلكان»: «حج في خلافته تسع حجج، وكان يصلي في اليوم مائة ركعة».

الخليفة السادس
محمد الأمين
(١٩٣ ـ ١٩٨هـ = ٨٠٩ ـ ٨١٣م)

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد بالرصافة وأمه «زُبيدة» ابنة «جعفر الأكبر بن المنصور»، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه «هارون الرشيد» باعتباره ولي عهده، وكان عمره حينئذٍ ثمانية وعشرين عاماً.

الصراع بين الأمين والمأمون:

تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف كانت من جانب «الأمين»، حين خالف أمر والده «الرشيد» فى مرضه، بأن يكون ما فى معسكره من أموال ومتاع وجند لأخيه «المأمون»، فى «مرو»؛ مما أحدث أثراً سيئاً فى نفس «المأمون».

وكانت الخطوة التالية قيام «الأمين» بتعيين ابنه «موسى» ولياً للعهد بدلاً من أخويه «المأمون» و«المؤتمن»، فقام «المأمون» بإسقاط اسم «الأمين» من الطرز والسّكة، ومنع البريد من الوصول إليه بأخبار «خراسان»، ثم طلب من أخيه «الأمين» أن يرد إليه مائة ألف دينار كان والده «الرشيد» قد أوصى بها إليه فرفض «الأمين»، ثم تطور الصراع بينهما إلى المواجهة العسكرية، فجهز «الأمين» جيشاً بقيادة «علي بن عيسى بن ماهان»، وجهَّز «المأمون» جيشاً ضخماً بقيادة «طاهر بن الحسين»، ودارت عدة معارك بين الجيشين انتهت بمحاصرة «بغداد» ومقتل «الأمين» سنة (١٩٨هـ = ٨١٣م)، وقد دامت خلافة «الأمين» أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام.

الخليفة السابع
عبد الله المأمون
(١٩٨ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م)

هو «عبد الله بن هارون الرشيد»، وُلد في منتصف (ربيع الأول سنة (١٧٠هـ = أغسطس سنة ٧٨٦م) وأمه «أم ولد» فارسية تُسمَّى «مراجل»، وكان يكنى «أبا العباس»، ويُلقب بالمأمون.

نشأ «المأمون» نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرَّب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، كما أسند والده «الرشيد» إلى وزيره «جعفر البرمكي» مهمة الإشراف على تنشئته، وقد أظهر المأمون نبوغاً خلال دراسته.

ولما تولى «المأمون» الخلافة عزم أن يقدم القدوة الصالحة، والسيرة الحسنة في الناس حتى يقتدي به رجال دولته، وكان يقول: «أول العدل أن يعدل الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى».

كما اتصف «المأمون» بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك وهو القائل:

«لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليّ بالجرائم، وأخاف ألا أؤجر عليه»، يعني لكونه طبعاً له يستلذ به.

سياسة المأمون:

انتهج «المأمون» سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منها:

١ ـ تأليف القلوب بالعفو والعطاء، وقد عد «اليعقوبي» سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال «المنصور»، لكنها قوبلت عند «المأمون» بالعفو.

٢ ـ العناية بالعلم والعلماء: كان للمأمون ولعٌ بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من «بيزنطة» لحضورها،

وكان يتصيَّد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطاً من شروط الهدنة ووقف القتال مع الروم، كما أقام «بيت الحكمة» وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجماً.

المأمون والشيعة:

جمعت سياسة «المأمون» تجاه الشيعة بين أمرين هما السخط والرضا.

أما العنف فقد تمثل في سياسة «المأمون» تجاه الثورات الشيعية المسلحة التي اندلعت في عدة أماكن، مثل حركة «ابن طباطبا العلوي» سنة (١٩٩هـ = ٨١٤م)، وحركة «الحسين بن الحسن» في «الحجاز»، وحركة «عبدالرحمن بن أحمد» في «اليمن» سنة (٢٠٧هـ = ٨٢٢م)، وقد انتهت هذه الحركات بالفشل فى تحقيق أغراضها.

وأما الرضا فقد تمثل في قيام «المأمون» باختيار أحد أبناء البيت العلوي وهو «علي بن موسى الرضا» ليكون ولي العهد من بعده، وهو ما لم يفعله أحد من خلفاء «بني العباس» قبله، وقد اختلف المؤرخون في تعليل قيام «المأمون» بهذا الأمر، فمنهم من فسرّ ذلك بميول «المأمون» الشيعية وحرصه على تولية أفضل العناصر ولاية العهد، وآخرون أرجعوا ذلك إلى تأثير «الفضل بن سهل» وميوله الشيعية.

وقد أحدثت بيعة «المأمون» لـ«علي بن موسى الرضا» بولاية العهد ردود فعل عنيفة في أنحاء «الدولة العباسية» فرفض أفراد البيت العباسي ومؤيدوهم هذه البيعة، وبايعوا «إبراهيم بن المهدي» عم «المأمون» بالخلافة سنة (٢٠٢هـ = ٨١٧م) ولما علم «المأمون» بذلك وهو في «مرو» بخراسان تحرك قاصداً «بغداد» لمعالجة الموقف، وأثناء ذلك مات «علي الرضا» ولي العهد، فهدأ الموقف، وهرب «إبراهيم بن المهدي» من «بغداد»، ودخلها «المأمون»، ثم عفا عنه.

المأمون والفرس:

يمكن تقسيم نشاط الفرس في عهد المأمون إلى قسمين:

١ ـ نشاط سياسي.

٢ ـ نشاط عسكري.

ويتمثل النشاط السياسى في الدور الذي لعبه «بنو سهل» مع «الخليفة المأمون»، وهو يشبه تماماً دور البرامكة مع «هارون الرشيد»، حيث سلم «المأمون» «الفضل بن سهل» مقاليد الأمور، فصارت مهام الدولة في يده، وبدأ في إبعاد العناصر العربية من بلاط «المأمون»، وتعصب للعنصر الفارسي، وارتكب مجموعة أخرى من الأخطاء؛ مما جعل «المأمون» يفكر في التخلص منه، فقتل أثناء سفر «المأمون» إلى «بغداد».

أما النشاط العسكري فيتمثل في حركة «بابك الخرمي»،التي تُعدُّ أخطر الحركات الفارسية المعادية للخلافة العباسية، فقد استمرت ما يزيد على عشرين عاماً واتسمت بدقة التنظيم وبراعة القيادة، والاتصال السياسي بالأكراد والأرمن وغيرهم، وكانت تؤمن بمبادئ هدامة منها:

١ - الإيمان بالحلول والتناسخ حتى إن زعيمها «بابك» ادَّعى الألوهية.

٢ - المشاعية المزدكية في الأموال والأعراض.

٣ - ضرورة التخلص من السلطان العربي والدين الإسلامي.

وقد ألحقت هذه الحركة العديد من الهزائم بالجيش العباسي ولم يتم القضاء عليها إلا في عهد «المعتصم بالله».

وفاة المأمون:

ظل «المأمون» خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً، وقد تُوفِّي في (١٨من رجب سنة ٢١٨هـ = ٨٣٣م).



الخليفة الثامن
المعتصم بالله
(٢١٨ - ٢٢٧هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢م)

هو «محمد بن هارون الرشيد»، وُلد في (شعبان سنة ١٨٠هـ = أكتوبر سنة ٧٩٦م)، وأمه جارية تركية اسمها «مارده»، وقد تولى الخلافة عقب وفاة أخيه «المأمون».

كان «المعتصم» يتميز بقوته الجسمية وشدته في الحرب، حتى قيل عنه: إنه كان يصارع الأسود ويحمل ألف رطل ويمشي به خطوات ويشد على الدينار بأصبعه السبابة والوسطى فيمحو كتابته، وقال عنه المؤرخون: إنه لم يكن في «بني العباس» قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً ولا أشد قوة.

ومع ذلك فقد كان «المعتصم» على خلاف أخويه «الأمين» و«المأمون» في العلوم والآداب، فقد كان قليل البضاعة منهما، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه نشأ أمياً لا يكتب، أو أنه كان ضعيف الكتابة على حد قول «ابن خلكان» و«ابن كثير».

سياسة المعتصم:

اختلفت الأوضاع السياسية في عهد «المعتصم» عنها في عهد من سبقه، بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركي قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل «المعتصم» يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية.

إلا أن كثرة الأتراك سببت أضراراً كبيرة لسكان «بغداد»، مما دفع «المعتصم» إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوقع الاختيار على المكان الذى بنيت عليه مدينة «سُرّ من رأى» (سامراء حالياً) التي بُدء البناء فيها سنة (٢٢١هـ = ٨٣٦م)، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية

فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأنحاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجارى بين النواحي الشمالية والجنوبية، وعسكرياً فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أي عدوان خارجي.

ومن الأعمال العظيمة التي تنسب إلى «المعتصم بالله» نجاحه في القضاء على ثورة «بابك الخرمي»، فحينما تولى أمر البلاد جهز جيشاً بقيادة «الأفشين» وزوَّده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على «بابك الخرمي» وإعدامه.

المعتصم والشيعة:

لم تظهر في عهد «المعتصم» حركات علوية مؤثرة كالحركات التي حدثت في عهد الخلفاء السابقين، وإنما حدثت بعض الحركات الضعيفة، ومنها:

- حركة «محمد بن القاسم» المعروف بالصوفي، سنة (٢١٩هـ = ٨٣٤م):

والذي تحرك في عدة أماكن كـ«الحجاز» و«الكوفة» ثم استقر في «خراسان»، وشكلت حركته خطراً على «الدولة العباسية»، فكلف «المعتصم» واليه على «خراسان» «عبد الله بن طاهر» بالتصدي لهذه الحركة؛ حيث نجح في القضاء عليها.

وفاة المعتصم بالله سنة (٢٢٧هـ = ٨٤١م):

تُوفي «المعتصم بالله» في شهر (ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ = ديسمبر سنة ٨٤١م)، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين «المُثَمن»، لأن خلافته دامت ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين، ومولده في الشهر الثامن من العام الهجرى، ومات عن ثمانية بنين وثماني بنات.

الخليفة التاسع
الواثق بالله

(٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ = ٨٤١ ـ ٨٤٧م)

هو «هارون بن المعتصم بالله»، يكنى «أبا جعفر» وأمه أم ولد رومية تُسمى «قراطيس»، وكان فطناً لبيباً فصيحاً ينظم الشعر ويحب الموسيقى.

وقد تولى «الواثق بالله» الحكم يوم وفاة والده «المعتصم».

سياسة الواثق بالله:

تظهر ملامح تلك السياسة فيما يلي:

أولاً: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمي للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم.

ثانياً: تقريبه للأتراك جرياً على سياسة والده «المعتصم»، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول «أشناس» وأعطاه الشطر الغربي من الدولة إلى آخر بلاد «المغرب»، والثاني قائده «إيتاخ» وأعطاه الشطر الشرقي: «دجلة» و«فارس» و«السند»، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: «وصيف التركي» الذي أوكل إليه «الواثق» القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، و«بغا الكبير» الذي أخمد ثورة الأعراب بنواحي «المدينة».

وكان الواثق يغدق عليهم الأموال والهدايا.

ثالثاً: مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل «أحمد بن إسرائيل»، الذي أخذ منه ثمانين ألف دينار، و«سليمان بن وهب» كاتب «إيتاخ»، الذي أخذ منه أربعمائة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثاراً سيئة في الجهاز الإداري والاستقرار المالي للدولة، وأصابهما بالفساد والخلل.

رابعاً: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفي مقدمتهم العلويون حيث أغدق عليهم الأموال.

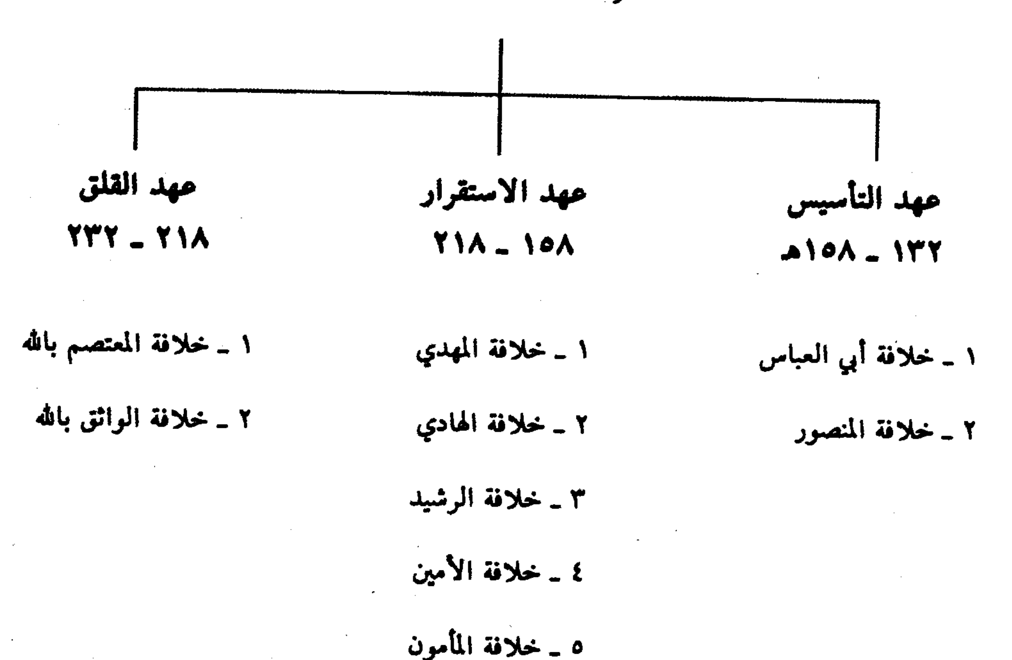
وفاة الواثق بالله:

استمر «الواثق» في مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أصيب بمرض الاستسقاء، ومات في (ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ = يوليو سنة ٨٤٧م)، وعمره اثنان وثلاثون عاماً، وقيل: ستة وثلاثون.

السمات العامة للعصر العباسي الأول

(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ)



السمات العامة للعصر العباسي الأول

(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ = ٧٤٩ ـ ٨٤٧م)

امتد العصر العباسي الأول مائة سنة، تولى الخلافة خلالها تسعة خلفاء، بدءاً من «أبي العباس» وانتهاءً بالواثق بالله، ويمكن تقسيم هذا العصر إلى ثلاثة عهود رئيسية:

١ ـ **عهد التأسيس** من سنة: (١٣٢هـ =٧٤٩م) إلى سنة (١٥٨هـ = ٧٧٥م)، ويشمل خلافة «أبي العباس» و«المنصور».

٢ ـ **عهد الاستقرار**: من سنة (١٥٨هـ = ٧٧٥م) إلى سنة (٢١٨هـ = ٨٣٣م)، ويشمل خلافة «المهدي» و«الهادي» و«الرشيد» و«الأمين» و«المأمون».

٣ ـ **عهد القلق**: من سنة (٢١٨هـ =٨٣٣م) إلى سنة (٢٣٢هـ = ٨٤٧م)، ويشمل «المعتصم بالله» و«الواثق بالله».

ويتميز العصر العباسي الأول بالسمات الآتية:

أولاً: كثرة الصراعات:

ومن ذلك:

١ ـ الصراع بين العرب ـ ومنهم أسرة الخلافة ـ والفرس ـ ومنهم الوزراء والإداريون وغيرهم ـ مثلما حدث بين «الرشيد» و«البرامكة»، و«المأمون» و«بني سهل».

٢ ـ الصراع بين فروع البيت الهاشمى: العباسيين، والعلويين، مثلما حدث بين الخليفة «المنصور» و«محمد النفس الزكية».

٣ ـ الصراع بين الخلافة العباسية والحركات المعادية لها من العرب وغيرهم، وقد تمثل ذلك فى حركات الخوارج.

٤ ـ الصراع بين الإسلام ـ الدين الرسمي للدولة ـ وبين العقائد الأخرى التي ظهرت في بلاد فارس كـ«الخُرَّمية» وغيرها من العقائد الفاسدة.

ثانياً: اتساع العلاقات الخارجية:

فقد بسطت الخلافة العباسية سلطانها على بلادٍ كثيرة شرقاً وغرباً، وتعددت علاقاتها مع الدول الأخرى وفى مقدمتها:

أ ـ الدولة البيزنطية:

وكانت العدو التقليدي للدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ، وقد اشتد هذا العداء بعد استيلاء المسلمين على بعض المناطق التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية، كـ«الشام» و«مصر» و«المغرب».

وخلال العصر العباسي الأول حدث الاحتكاك المباشر بين القوات الإسلامية والبيزنطية على الحدود الشمالية في منطقة «الشام»، فقد استغلت «الدولة البيزنطية» انشغال الخليفة العباسي الأول «أبي العباس عبد الله بن محمد»، بتثبيت أركان الدولة سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م)، وقامت بمهاجمة الحصون والثغور الإسلامية؛ فأمر الخليفة «أبو العباس» واليه على «الشام» بالإعداد لمواجهة البيزنطيين، ولكن الموت عاجله، وجاء «المنصور» فأمر بتحصين الثغور وإعادة بناء ما هدمه البيزنطيون، وجعل لها حكماً إدارياً مستقلاً، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين في سبيل الله.

وكانت هذه الثغور تنقسم إلى قسمين:

١ ـ الثغور الجزرية: للدفاع عن الجزيرة الفراتية وشمال «العراق» وأهم حصونها «ملطية» و«المصيصة»، و«مرعش».

٢ ـ الثغور الشامية: وتقع غرب الثغور الجزرية، وهي للدفاع عن «الشام»، وأهم حصونها «طرسوس»، و«أدنة».

وفي سنة (١٦٢هـ =٧٧٩م) أرسل «المهدي» جيشاً ضخماً بقيادة «الحسن بن قحطبة»، فتوغل في بلاد الروم ونشر الرعب بين صفوفهم.

وفي سنة (١٦٣هـ = ٧٨٠م) خرج «المهدي» بنفسه على رأس الجيش متجهاً إلى الحدود البيزنطية، ووصل إلى «الموصل» ثم «حلب»؛ حيث ترك ابنه «هارون الرشيد» ليتابع جهاده ضد البيزنطيين، وفي عهد «الرشيد» (١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) أمر بجعل منطقة الثغور منطقة مستقلة باسم «الثغور والعواصم» وأقام خطين للدفاع عن حدود الدولة مع البيزنطيين، الخط الأول هو الثغور، والخط الثاني إلى الجنوب من الخط الأول، ويُسمَّى: العواصم.

كما قام «الرشيد» ببناء حصون جديدة، مثل «عين زرية»، و«زبطرة» وغيرهما. وقد حاول «نقفور» إمبراطور «الدولة البيزنطية» الامتناع عن دفع الجزية للخلافة العباسية، فأرسل إليه «الرشيد» يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى (نقفور) كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام». وخرج «الرشيد» بنفسه على رأس جيش ضخم ألحق الهزيمة بالقوات البيزنطية وأرغم الإمبراطور «نقفور» على الخضوع ودفع الجزية مرة أخرى.

ونظراً لكثرة المعارك بين العباسيين والبيزنطيين، فقد وقع كثير من جنود الطرفين أسرى، وقد حرصت الخلافة العباسية على فداء أسرى المسلمين، في عهد «الرشيد» سنة (١٨١هـ = ٧٩٧ م).

وقد سار «المأمون» (١٩٨ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م) على سياسة والده نفسها، في استمرار النشاط العسكري ضد البيزنطيين، وكان النصر حليف المسلمين.

وتعدُّ معركة «عمورية» سنة (٢٢٣هـ = ٨٣٨م)، أبرز المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في عهد «المعتصم بالله»، وكان سببها اعتداء الإمبراطور البيزنطي «تيوفيل بن ميخائيل» على بعض الثغور والحصون على حدود «الدولة الإسلامية»، وحين بلغ «المعتصم» ما وقع للمسلمين في هذه المدن، وصيحة امرأة مسلمة وقعت في أسر الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، وجهز جيشاً ضخماً أرسله على وجه السرعة لإنقاذ المسلمين، ثم خرج بنفسه على رأس جيش كبير وفتح مدينة «عمورية»، وهي من أعظم المدن البيزنطية، واستولى على ما بها من مغانم وأموال كثيرة جداً.

ب ـ الدولة الأموية بالأندلس:

وكانت علاقة العباسيين بها علاقة عداء وتربص، فقد استطاع «عبدالرحمن بن معاوية» ـ بعد فراره من العباسيين إلى «الأندلس» ـ أن يؤسس «الدولة الأموية» بالأندلس وعاصمتها «قرطبة» سنة (١٣٨هـ = ٧٥٥م).

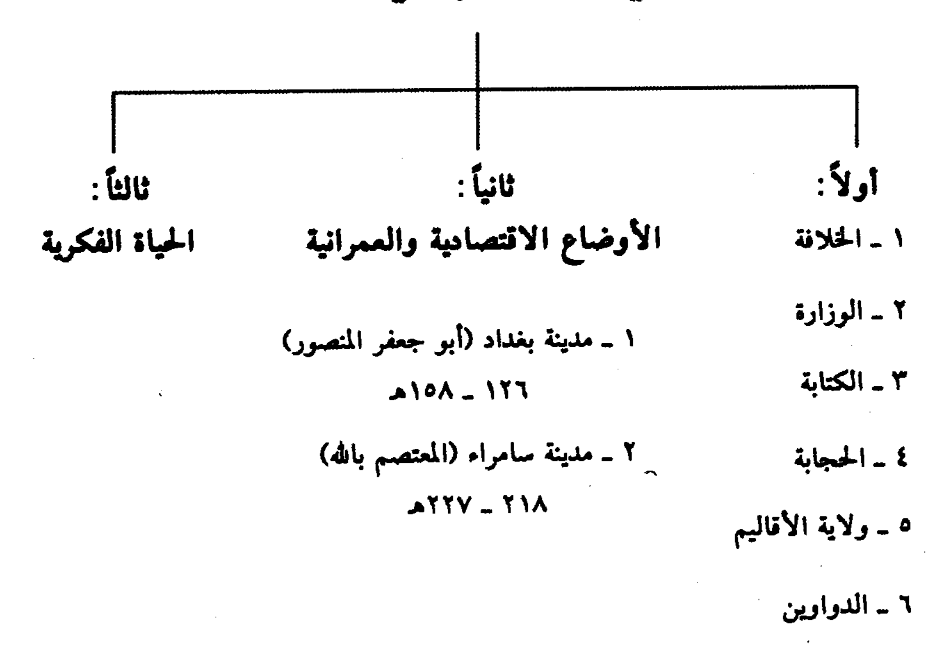
وقد حاولت الخلافة العباسية بسط نفوذها على بلاد «الأندلس» والقضاء على «الدولة الأموية» بها، فدبَّر «أبو جعفر المنصور» ثورة «العلاء بن مغيث الجذامى» في مدينة «باجة» الأندلسية سنة (١٤٦هـ = ٧٦٣م)، وقام «المهدي» بمساندة الثورات الداخلية التي كانت تقوم لحساب «الدولة العباسية»، ولكن كل هذه المحاولات والثورات باءت بالفشل بسبب يقظة الأمير الأموي «عبد الرحمن الداخل» وحزمه، وقد لقبه «أبو جعفر المنصور» بصقر قريش، بل إن «عبدالرحمن الداخل» أشاع عزمه على غزو «الشام» وانتزاعها من «الدولة العباسية»، وكتب إلى أنصاره في «الشام» بذلك وعهد إلى ابنه «سليمان» بولاية «الأندلس»، وذلك بغرض إزعاج «الدولة العباسية» وإرغامها على وقف محاولاتها المستمرة لاسترداد بلاد «الأندلس».

ج ـ الدولة الكارولونجية:

وكانت إحدى القوى الناشئة في غربي «البحر المتوسط» (جنوبي فرنسا حالياً)، وقامت بينها وبين الدولة العباسية علاقات سياسية، وجرى تبادل السفراء بين الدولتين في عهد «هارون الرشيد»، وقد سعى زعيم «الدولة الكارولونجية» «شارلمان» إلى كسب وده لتعزيز موقفه الداخلي والخارجي، وتبادل معه الهدايا الثمينة.

الأوضاع الحضارية
في العصر العباسي الأول



الأوضاع الحضارية
في العصر العباسي الأول

أولاً: النظام السياسي والإداري:

ويشمل:

أ ـ الخلافة:

وقد أقام العباسيون دولتهم سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م) وتولى أول خلفائهم «أبو العباس عبد الله بن محمد» السلطة بناءً على وصية أخيه «إبراهيم الإمام» بعد وقوعه في قبضة الأمويين، وقد حكم «أبو العباس» أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه «أبي جعفر المنصور» بولاية العهد من بعده، ومن بعد «أبي جعفر»، «عيسى بن موسى»، وكتب العهد بهذا، وصره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتم أهل بيته وسلمه إلى «عيسى بن موسى».

ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثياً في عهد «الدولة العباسية» منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسي، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصي بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع «الدولة العباسية».

وحين تولى «أبو جعفر المنصور» الخلافة واجه اعتراضاً من عمه «عبد الله بن علي» الذي رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعياً أنه ولي عهد «أبي العباس»، مما دعا «المنصور» إلى توجيه جيش له بقيادة «أبي مسلم الخراساني» تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته.

وقد نقل «المنصور» ولاية العهد من ابن أخيه «عيسى بن موسى» إلى ابنه «محمد»، الذي تولى الخلافة بعد أبيه «المنصور» سنة (١٥٨هـ = ٧٧٥م) ولقب بالمهدي، واستمر في منصبه حتى تُوفِّي سنة (١٦٩هـ = ٧٨٥م)؛ حيث تولى ابنه

«موسى» الملقب بالهادي، ولم يمكث سوى سنة واحدة في الحكم؛ حيث تولى من بعده أخوه «هارون الرشيد»، ومنذ عهد «الرشيد» أصبح الصراع السياسي على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسي الأول، وكان الصراع بين «الأمين» و«المأمون» من الأمثلة المعبرة عن هذه السمة، وقد انتهى بقتل «الأمين» وتولية «المأمون» الخلافة.

ب ـ الوزارة:

تُعدُّ الوزارة المنصب الثاني بعد الخلافة في «الدولة العباسية» وقد قسَّم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

ـ وزارة التفويض:

حيث يُفوِضُ الخليفة الوزير فى تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة فى الحكم والتصرف في شؤون الدولة.

ـ وزارة التنفيذ:

حيث يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد منفذ لأوامر الخليفة.

وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة في بداية دولتهم متأثرين في ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسؤوليات الوزير في بداية الأمر تبعد كثيراً عن مسؤوليات الكاتب، وقد حصر «أبو جعفر المنصور» مهمة الوزير فى التنفيذ وإبداء الرأي والنصح، ولم يكن له وزير دائم، ومن وزرائه: «الربيع بن يونس» الذي اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة.

وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير في عهد الخليفة «المهدى»، لما ساد الدولة من هدوء نسبي، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء «يعقوب بن داود»، ثم صار للوزارة شأن كبير في عهد «الرشيد»، و«المأمون» لاعتماد الأول على البرامكة، والثاني على «بني سهل»، فمُنِحَ «يحيى البرمكي» وزير «الرشيد»، و«الفضل بن سهل» وزير «المأمون» صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تم التخلص منهما.

ج ـ الكتابة:

كانت طبقة الكُتَّاب ذات أهمية كبيرة في «الدولة العباسية»، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة؛ لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولَّى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر في الدعاوي والشكاوى ثم يختمها بخاتم الخليفة.

ومن أشهر الكُتَّاب في العصر العباسي الأول «يحيى بن خالد بن برمك» في عهد «الرشيد»، و«الفضل» و«الحسن» ابنا «سهل»، و«أحمد بن يوسف» في عهد «المأمون»، و«محمد بن عبدالملك الزيات» و«الحسن بن وهب»، و«أحمد بن المدبر» في عهد «المعتصم» و«الواثق».

د ـ الحجابة:

وهي وظيفة تقوم بمساعدة الحكام في تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية، فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة، يدرس حوائجهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدى الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير مقنعة؛ وذلك حفاظاً على هيبة الخلافة وتنظيماً لعرض المسائل حسب أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد.

وقد اقتدى العباسيون بالأمويين في اتخاذ الحُجَّاب، وأسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر في نشأة ما أسماه «ابن خلدون» «الحجاب الثاني»، فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يُسمَّى «دار الخاصة» والآخر «دار العامة»، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها وظروفها في إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحُجَّاب على أبوابها.

هـ ـ ولاية الأقاليم:

المقصود بالأقاليم: المناطق التي تتكون منها الدولة. وقد كان النظام الإداري في «الدولة العباسية» نظاماً مركزياً؛ حيث صار الولاة على الأقاليم مجرد عمال للخليفة على عكس ما كانوا عليه في «الدولة الأموية».

وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، وخصوصاً في عهد «الرشيد».

الأول: (الولاية الكبرى) وهي التي تكون لأحد أبناء الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالي عدة أقاليم في الدولة ويقوم بتصريف أمورها من العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة.

الثاني: (الولاية الكاملة) حيث يتمتع الوالي ببعض السلطات التي توسع دائرة نفوذه، مثل النظر في الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو.

و ـ الدواوين:

ظهرت الدواوين في «الدولة الإسلامية»، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل «ابن خلدون» وجود الديوان من الأمور اللازمة للمُلك.

وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومرتباتهم، ويرجع الفضل في تنظيم الدواوين فى العصر العباسى إلى «خالد بن برمك».

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثرت اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية في مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات «الدولة الأموية»، خصوصاً في الدواوين والدوائر الرسمية، كما استحدثوا بعض الدواوين كديوان المصادرات، وديوان الأزمّة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها.

ز ـ القضاء:

وهو من الوظائف المهمة في «الدولة الإسلامية»، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمِداً أحكامه من الكتاب والسنة، ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد وضع

العلماء المواصفات التي يجب توافرها في القاضي، و منها : أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حراً مسلماً عادلاً، ويتمتع بالسلامة في السمع والبصر، وأن يكون عالماً بأحكام الشريعة.

وقد حظي القضاة في العصر العباسي الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة (١٣٦هـ = ٧٥٣م).

وقد استقرت المذاهب الفقهية في عهد «الدولة العباسية»، وتحددت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضي علنية في المسجد وخصوصاً في عهد «المأمون».

كما اهتم خلفاء العباسيين بالتثبت من الأحكام، فعيَّنوا جماعة من المُزَكِّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم في شهادة أحد الشهود سُئل عنه المزكي، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا في يسر ورخاء.

وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة في العصر العباسي الأول، وظهر منصب «قاضي القضاة»، وكان يقيم في عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة في الأقاليم والبلاد المختلفة، وأول من لقب «قاضي القضاة» «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، في عهد «الرشيد».

ثانياً: الأوضاع الاقتصادية والعمرانية:

أدرك الخلفاء العباسيون أهمية الاقتصاد وتنمية الموارد المالية لمواجهة النفقات المتعددة للدولة، واتخذ «المنصور» عدة خطوات لزيادة موارد الدولة، فاستحدث نظام المصادرات للاستيلاء على الأموال لمواجهة أعباء الثورات والحركات التي واجهها، وأعاد النظر في مقادير الضرائب المفروضة على الكور.

وفي عهد «الرشيد» ازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية، وارتفع مستوى المعيشة، بسبب تدفق الأموال على خزانة الدولة في بغداد، وتعدد موارد الدولة المالية، فكان منها الزكاة، والخراج، والجزية، وأخماس المعدن، والرسوم على التجارة الخارجية، وغيرها.

وقد أسهمت تلك الموارد في سدّ النفقات في مجال النشاط العسكري والأمني، ومجال البناء والتعمير وإنشاء المدن، مثل مدينة «بغداد» و«سامراء».

مدينة بغداد:

يرجع الفضل في بنائها إلى الخليفة «أبي جعفر المنصور» ودفعه إلى ذلك عدة أسباب، منها:

١ ـ «ثورة الراوندية» سنة (١٤١هـ = ٧٥٨م) وما شكّلته من خطر كبير على «المنصور» نفسه؛ الأمر الذي جعله يفكر جدياً في الانتقال من «الهاشمية» لأنها لم تكن بالعاصمة الحصينة التي يأمن فيها على نفسه.

٢ ـ أن «الهاشمية» وهي العاصمة المؤقتة للدولة العباسية كانت قريبة من «الكوفة» مركز التشيع؛ مما يشكل خطراً على العباسيين.

٣ ـ رغبة «المنصور» في إنشاء عاصمة جديدة تليق بالدولة وتخلد ذكره من بعده.

وقد جرت عدة محاولات لاختيار المكان المناسب لبناء عاصمة الدولة الجديدة، حتى وقع الاختيار على المكان الذي بنيت فيه مدينة «بغداد»؛ وروعي فيها أن تتمتع بمزايا عديدة أهمها:

ـ أنها قريبة من «خراسان» مهد الدعوة العباسية، فضلاً عن قربها من المراكز العربية الأخرى، وبعدها عن مراكز الاحتكاك البيزنطي.

ـ وأنها تقع بين نهرين كبيرين هما «دجلة» و«الفرات»، وهما يشكلان خطين للدفاع عن المدينة.

ـ وأنها تقع وسط «العراق» وعلى مسافة متساوية بين «البصرة» و«الموصل»؛ مما يجعلها سوقاً للبضائع والمنتجات، وملتقى للقوافل التجارية البرية والنهرية؛ إذ إنها تقع أيضاً على طريق «الشام» ـ الخليج العربي.

هذا بالإضافة إلى طبيعة المكان السهلة والمفتوحة؛ مما يشبع رغبة العرب والمسلمين الذين اعتادوا السكنى في مثل هذه الأماكن.

وقد حشد «المنصور» لبنائها العمال المهرة في الصناعة والبناء، وابتدأ فى بنائها سنة (١٤٥هـ = ٧٦٢م)، وفقاً لأرجح الأقوال.

وقد تم تصميم المدينة على شكل دائري، يحيط بها سور، ولها أربعة أبواب، وبلغت نفقات بنائها حينئذٍ ثمانية عشر مليون درهم، وأطلق عليها اسم «دار السلام»، إلا أن الشائع هو اسمها القديم «بغداد».

مدينة سامراء:

أسسها الخليفة العباسي «المعتصم بالله» (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) وجعلها عاصمة للخلافة، وقد دفعه إلى إنشائها احتكاك الجنود (الأتراك) الذين جلبهم الخليفة للإقامة معه في «بغداد»، بسكان المدينة وجنودها السابقين، مما أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين سكان «بغداد» ومقتل كثير من النساء والأطفال والشيوخ، فاضطر الخليفة «المعتصم بالله» إلى البحث عن مكان جديد، ينتقل إليه مع جنوده وحاشيته؛ فوقع الاختيار على أرض «سامراء»، على بعد ستين ميلاً شمالى «بغداد».

وقد حشد لها «المعتصم» العمال والبنائين وأهل الصناعات المهرة، وشرع فى بنائها سنة (٢٢١هـ = ٨٣٦م).

ثالثاً: الحياة الفكرية:

شهد العصر العباسي الأول نهضة فكرية عظيمة، وطفرة ثقافية كبيرة في شتى مجالات العلم والمعرفة نتيجة امتداد رقعة «الدولة العباسية» ووفرة ثروتها ورواج تجارتها واهتمام الخلفاء بالحياة الفكرية.

وقد ميز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم:

١ ـ علوم تتصل بالقرآن الكريم، وهي «العلوم النقلية أو الشرعية»، وتشمل علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.

٢ ـ علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وهي «العلوم العقلية» وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.

وقامت المساجد بدور فعَّال في نشر الثقافة الإسلامية؛ حيث كانت تكتظ بحلقات العلم والدرس، وبخاصة العلوم الشرعية التي ازدهرت في العصر العباسي، ونشأت في كنف علميّ التفسير والحديث.

- ولم يكن الحديث مقصوراً على أحاديث رسول اللهﷺ، وإنما ضم أيضاً ما كان مأثوراً عن الصحابة.

ومن أشهر رجال الحديث في ذلك العصر: «حمَّاد بن سلمة» المتوفى سنة (١٦٥هـ)، و«سفيان بن عُيَيْنَة» بمكة المتوفى سنة (١٩٨هـ)، و«وكيع بن الجراح» بالكوفة المتوفى سنة (١٩٦هـ)، و«عبد الله بن المبارك» المتوفى سنة (١٨١هـ)، و«سفيان الثوري» بالكوفة المتوفى سنة (١٦١هـ)، و«عبد الرحمن الأوزاعي» بالشام المتوفى سنة (١٥٧هـ)، و«عبدالملك بن جريج» المتوفى سنة (١٥٠هـ)، و«معمر بن راشد» باليمن (١٥٣هـ)، و«سعيد بن أبى عروبة» بالبصرة المتوفى سنة (١٥٦هـ)، و«مالك بن أنس» بالمدينة.

ومن أبرز المؤلفات في هذا المجال: كتاب «الموطأ» الذي ألفه الإمام «مالك بن أنس» إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) بناءً على طلب «المنصور»، فيروى أن الخليفة «أبا جعفر المنصور» قابل الإمام «مالكاً» في موسم الحج، وكلَّمه في مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: يا «أبا عبد الله» لم يبقَ في الناس أفقه مني ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة فاجمع هذا العلم ودونه ووطئه للناس توطئة، وتجنب فيه شدائد «عبد الله بن عمر»، ورُخَص «عبد الله بن عباس»، وشواذ «عبد الله بن مسعود»، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم. فاعتذر الإمام «مالك»، فلم يقبل «المنصور» منه، فوضع «مالك» كتاب «الموطأ».

- ولم تظهر الطريقة المنظمة في التفسير إلا في العصر العباسي الأول؛ حيث كان قبل ذلك غير منظم ويقتصر على تفسير آيات صغيرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات باستثناء تفسير ابن عباس.

وأهم المفسرين في العصر العباسي الأول: «مقاتل بن سليمان الأزدي» المتوفى سنة (١٥٠هـ)، و«محمد بن إسحاق» المتوفى سنة (١٥١هـ)، ولم يصل من تفاسير هؤلاء شيء إلينا.

■ وازدهرت دراسة الفقه ازدهاراً عظيماً وكانت له مدرستان:

الأولى: مدرسة أهل الرأي والقياس في العراق ومؤسسها «أبو حنيفة النعمان» المتوفى سنة (١٥٠هـ)، وخلفه «أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم» المتوفى سنة (١٨٢هـ)، و«محمد بن الحسن الشيباني» المتوفى سنة (١٨٩هـ).

والثانية: مدرسة أهل الحجاز ومؤسسها «مالك بن أنس» وتسمى مدرسة أهل الحديث، ثم جاء الإمام الفقيه «محمد بن إدريس الشافعي» المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، وجمع بين هاتين المدرستين، أي جمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على الرأي.

■ ومن العلوم التي ظهرت وتطورت في ذلك العصر: علم الكلام، ويقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية ويسمى المشتغلون به بالمتكلمين، ومن أشهر فرقهم المعتزلة الذين دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة والرافضة والشيعة، والنصارى، واليهود، والمانويين.

وأهم رجال المعتزلة: «واصل بن عطاء» المتوفى سنة (١٣١هـ)، و«عمرو بن عبيد» المتوفى سنة (١٤٥هـ)، و«بشر بن المعتمر» المتوفى سنة (٢١٠هـ)، و«ثمامة بن أشدس» المتوفى سنة (٢١٣هـ)، و«أبو الهذيل العلاف» المتوفى سنة (٢٢٧هـ).

■ وشهد ذلك العصر نهضة كبيرة في علوم اللغة العربية:

وأهم رجال هذه العلوم: «أبو عمرو بن العلاء» المتوفى سنة (٥٤هـ)، و«خلف الأحمر» المتوفى سنة (١٨٠هـ)، و«الأصمعي» صاحب الأصمعيات المتوفى سنة (٢١٣هـ)، و«أبو زيد الأنصاري» صاحب كتاب النوادر المتوفى سنة (٢١٤هـ)، و«أبو عبيدة» صاحب «نقائض جرير والفرزدق» المتوفى سنة (٢١٠هـ)، و«محمد بن سلام الجمحي»، و«حمَّاد الراوية» المتوفى سنة (١٥٥هـ)، و«المفضل الضبي»، و«أبو عمرو الشيباني» المتوفى سنة (٢٠٦هـ)، و«أبو عبيد القاسم بن سلام» المتوفى سنة (٢٢٤هـ).

وأهم رجال علم النحو: «عيسى بن عمر الثقفي» المتوفى سنة (١٤٩هـ)، و«الخليل» الواضع الحقيقي لعلم النحو المتوفى سنة (١٧٠هـ)، و«سيبويه» المتوفى

سنة (١٨٠هـ)، و«معاذ بن مسلم الهراء» المتوفى سنة (١٨٧هـ)، و«الكِسائي» المتوفى سنة (١٨٩هـ)، و«الفرَّاء» المتوفى سنة (٢٠٧هـ).

- وعني كثير من اللغويين والنحاة بكتابة سيرة النبي ﷺ وأشهرهم: «محمد بن إسحاق» المتوفى سنة (١٥١هـ)، و«ابن هشام» المتوفى سنة (٢١٣هـ)، و«محمد بن عمر الواقدي» المتوفى سنة(٢٠٧هـ)، و«محمد بن سعد» صاحب الطبقات المتوفى سنة(٢٣٠هـ).

- كما نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول.

وأشهر من اشتغل بذلك العلم: «محمد بن الحسين بن زبالة»، و«أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى» المتوفى سنة(١٥٧هـ)، و«سيف بن عمر التميمى» المتوفى سنة (١٨٠هـ)، و«هشام بن محمد الكلبي» المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، و«المدائني» المتوفى سنة (٢٢٥هـ).

- كما شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من فحول الشعراء على رأسهم «بشار بن برد» المتوفى سنة (١٦٨هـ)، و«أبو نواس الحسن ابن هانىء» المتوفى سنة (١٩٥هـ)، و«أبو العتاهية» المتوفى سنة (٢١١هـ)، و«مسلم بن الوليد» المتوفى سنة (٢٠٨هـ)، و«أبو تمام حبيب بن أوس» المتوفى سنة (٢٣١هـ).

- وتطور النثر في العصر العباسي الأول بعد دخول كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية التي امتزجت به، وأهم فنون النثر في ذلك الوقت الخطابة - والوعظ، و المناظرات، والرسائل الديوانية ـ العهود والوصايا والتوقيعات ـ والرسائل الإخوانية والأدبية.

- ومن أعلام الكتاب في ذلك العصر:

«ابن المقفع» المتوفى سنة(١٤٣هـ)، و«سهل بن هارون» المتوفى سنة(٢١٥هـ)، و«أحمد بن يوسف» المتوفى سنة(٢١٣هـ)، و«عمرو بن مسعدة» (٢١٧هـ).

- وقد شجع الرشيد العلم والعلماء، وأنشأ «بيت الحكمة»، وجمع فيه كثيراً من المؤلفين، والمترجمين والنساخ.

ومن أشهرهم: «سهل بن هارون»، و«الحسين بن سهل»، و«الفضل بن نوبخت»، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. و«حنين بن إسحاق»، و«يوحنا البطريق»، و«يوحنا بن ماسويه»، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وفي عهد «المأمون» نشطت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فأرسل البعوث إلى «القسطنطينية» لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب.

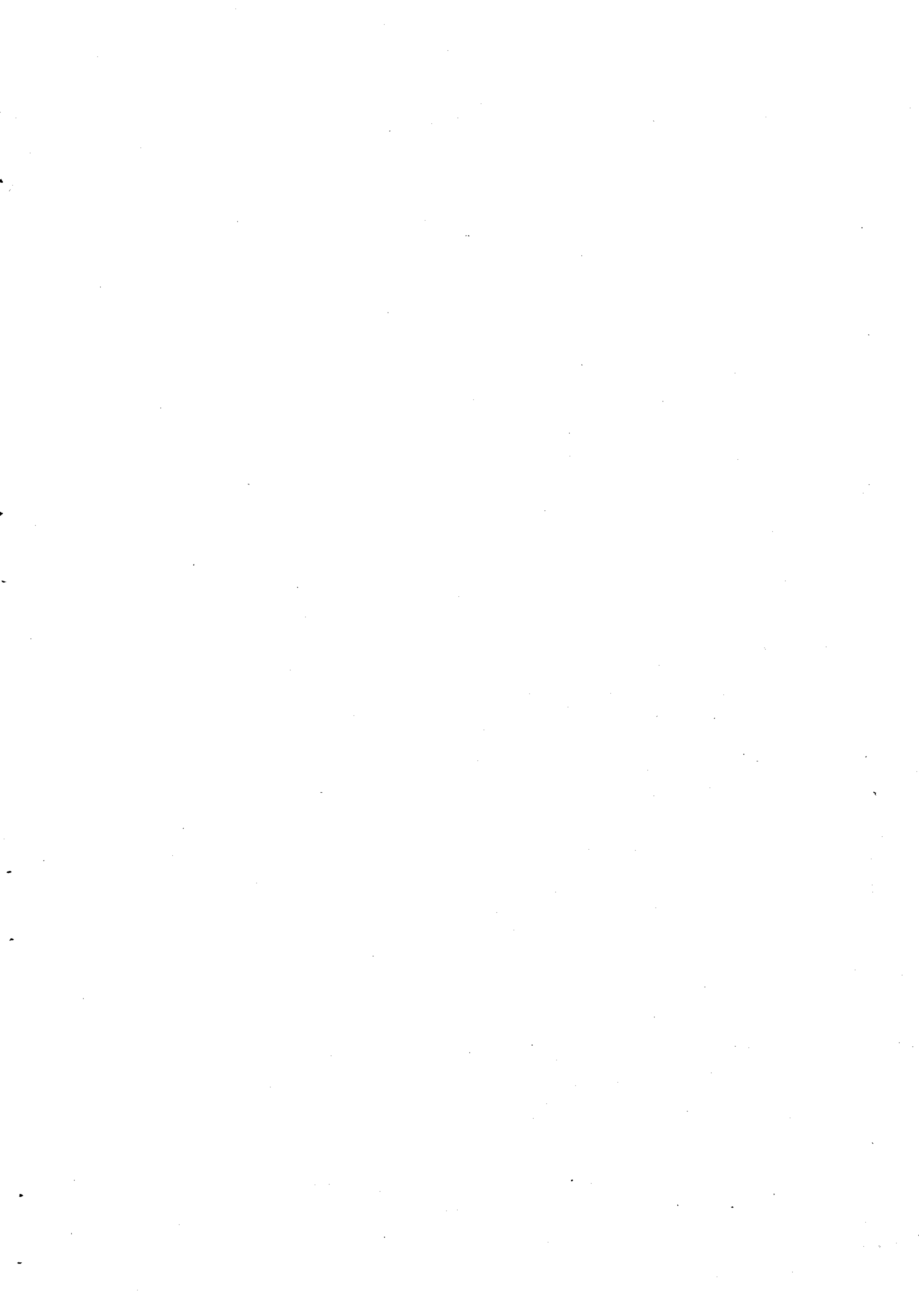
وبجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار (الأغنياء) بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم «محمد» و«أحمد» و«الحسن» أبناء «موسى بن شاكر» الذين أنفقوا أموالاً ضخمة في ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا «حنين بن إسحاق» إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات.

وقد اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي تُرجمت إلى العربية، وتفسيرها والتعليق عليها، وتصحيح أخطائها، ومن هؤلاء:

«يعقوب بن إسحاق الكندي»، الذي ترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، ونبغ في علوم الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهَندسة وعلم النجوم.

ومن العوامل التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول ظهور الورق واستخدامه في الكتابة، وقد أنشأ «الفضل بن يحيى البرمكي» مصنعاً للورق في عهد «الرشيد» ببغداد، فانتشرت الكتابة فيه لخفته بعد أن كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي.



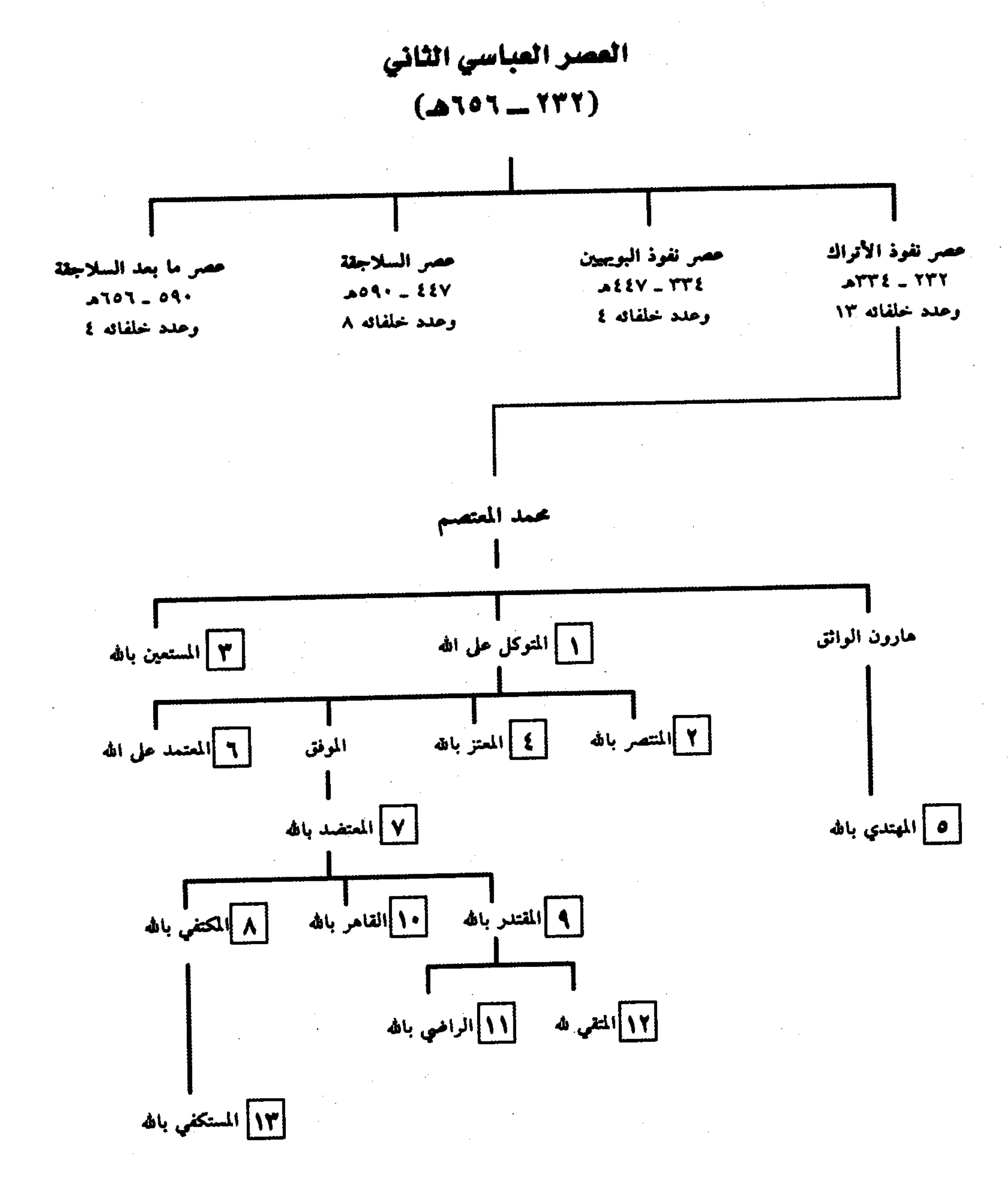





العصر العباسي الثاني

(٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ = ٨٤٧ ـ ١٢٥٨م)

العصر العباسي الثاني
(٢٣٢ ــ ٦٥٦هـ)



العصر العباسي الثاني

يمتد العصر العباسي الثاني أكثر من أربعة قرون، وقد قسم المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

١ ـ عصر نفوذ الأتراك.

٢ ـ عصر البويهيين.

٣ ـ عصر السلاجقة.

٤ ـ عصر ما بعد السلاجقة.

أولاً: عصر نفوذ الأتراك

(٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ = ٨٤٧ ـ ٩٤٥م)

كان «المأمون» أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودي العدد والنفوذ في عهده، فلما تولى الخليفة «المعتصم» الحكم جعلهم عنصراً أساسياً في جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفاً، وكانوا تحت سيطرة الخليفة.

وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد في عهد «الواثق»، ثم ازداد حدة واتساعاً في عهد الخليفة «المتوكل».

ويمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسي الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم:

١ ـ المتوكل على الله «جعفر بن المعتصم»
(٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م).

٢ ـ المنتصر بالله «محمد بن المتوكل»
(٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ = ٨٦١ ـ ٨٦٢م).

٣ ـ المستعين بالله «أحمد بن المعتصم»
(٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ = ٨٦٢ ـ ٨٦٦م).

٤ ـ المعتز بالله «محمد أبو عبدا لله بن المتوكل»
(٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ = ٨٦٦ ـ ٨٦٩م).

٥ ـ المهتدي بالله «محمد بن الواثق بن المعتصم»
(٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ = ٨٦٩ ـ ٨٧٠م).

٦ ـ المعتمد على الله «أحمد بن المتوكل بن المعتصم»
(٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ = ٨٧٠ ـ ٨٩٢م).

٧ - المعتضد بالله «أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل»
(٢٧٩ - ٢٨٩هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م).

٨ - المكتفي بالله «أبو محمد علي بن المعتضد»
(٢٨٩ - ٢٩٥هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨م).

٩ - المقتدر بالله «أبو الفضل جعفر بن محمد»
(٢٩٥ - ٣٢٠هـ = ٩٠٨ - ٩٣٢م).

١٠ - القاهر بالله «أبو منصور محمد بن المعتضد»
(٣٢٠ - ٣٢٢هـ = ٩٣٢ - ٩٣٤م).

١١ - الراضي بالله «أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد»
(٣٢٢ - ٣٢٩هـ = ٩٣٤ - ٩٤١م).

١٢ - المتقي لله «أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر»
(٣٢٩ - ٣٣٣هـ = ٩٤١ - ٩٤٥م).

١٣ - المستكفي بالله «أبو القاسم عبد الله بن المكتفى»
(٣٣٣ - ٣٣٤هـ = ٩٤٥ - ٩٤٦م).

(١) المتوكل على الله
(٢٣٢ - ٢٤٧هـ = ٨٤٧ - ٨٦١م)

وقد تولى الخلافة في ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ = ٨٤٧م)، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية.

ورغم أن «المتوكل»: كان قويَّ الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حداً لاستفحال النفوذ التركي في عهده، الذى كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلاماً.

وقد نجح «المتوكل» في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو «إيتاخ» الذي استفحل خطره حتى إنه همَّ يوماً بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسَّط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه سنة (٢٣٥هـ =

٨٤٩م)، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل «وصيف» و«بُغا»، إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولي عهده «محمد المنتصر» من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل «المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان» في الخامس من شوال سنة (٢٤٧هـ = ٨٦١م)، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة.

وقد استطاع «المتوكل» في عهده أن يظفر بمكانة عظيمة في قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش في القضايا الجدلية التي أثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما ردّ للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطُهد في عهد «المأمون» و«المعتصم» و«الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر «المتوكل» الفقهاء والمحدِّثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التي فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، حتى قالوا: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و«عمر بن عبد العزيز» ردَّ مظالم «بني أمية»، و«المتوكل» محا البدع وأظهر السنة.

(٢) المنتصر بالله
(٢٤٧ - ٢٤٨هـ = ٨٦١ - ٨٦٢م)

تولَّى الخلافة في اليوم الذي قُتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة (٢٤٧هـ = ديسمبر سنة٨٦١م)، وعمره ستة وعشرون عاماً. وحاول التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء.

ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل قوي الشخصية، فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه «ابن طيفور» ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، في (ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ = يونيو سنة٨٦٢م) بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه! ذهبت مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت».

ومن مآثر «المنتصر بالله»، خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد أبيه «المتوكل».

(٣) المستعين بالله
(٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ = ٨٦٢ ـ ٨٦٦م)

هو «أحمد بن المعتصم»، تولى الخلافة في السادس من (ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ = يونيو سنة ٨٦٢م)، وعمره ثمانٍ وعشرون سنة، فعقب وفاة «المنتصر» اجتمع الأتراك بزعامة «بُغا الصغير» و«بُغا الكبير»، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد «المتوكل» الخلافة، خوفاً من انتقامه منهم، وبايعوا «أحمد بن المعتصم»، الملقَّب بالمستعين بالله.

وكان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهي، ولم يمضِ وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة «المعتز بالله محمد بن المتوكل»؛ فاشتعلت الحرب بين أنصار «المستعين» وأنصار «المعتز»، وانتهت بالقبض على «المستعين» وقتله في سجنه في (شوال سنة ٢٥٢هـ = ديسمبر سنة ٨٦٦م).

وقد شهدت خلافة «المستعين بالله» قيام «الدولة العلوية» بطبرستان سنة (٢٥٠هـ = ٨٦٤م)، على يد «الحسن بن زيد العلوي» الملقب بالداعي الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى سنة (٣١٦هـ = ٩٢٨م).

(٤) المعتز بالله محمد بن المتوكل
(٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ = ٨٦٦ ـ ٨٦٩م)

بويع له بالخلافة في شوال سنة (٢٥٢هـ = ديسمبر سنة ٨٦٦م)، وعمره تسعة عشر عاماً، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه وضربوه ومزقوا ملابسه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، ثم سجنوه وعذبوه حتى مات (في شعبان سنة ٢٥٥هـ = يوليو سنة ٨٦٩م).

وكان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة «المعتز» قيام «الدولة الصفَّارية» في «فارس» بزعامة «يعقوب بن الليث الصفَّار» وذهاب «أحمد بن طولون» إلى «مصر» سنة (٢٥٤هـ = ٨٦٨م) نائباً عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها «الشام» مكوناً بذلك «الدولة الطولونية» في «مصر» و«الشام».

(٥) المهتدي بالله محمد بن الواثق

(٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ = ٨٦٩ ـ ٨٧٠م)

بايع الأتراك «المهتدي بالله» خليفة للمسلمين في (رجب سنة ٢٥٥هـ = يونيو سنة٨٦٩م)، عقب الإطاحة بالمعتز، وقد كان «المهتدي» تقياً شجاعاً حازماً، وكان يتخذ «عمر بن عبد العزيز» مثله الأعلى، ويقول: إني أستحي أن يكون في «بني أمية» مثله، ولا يكون مثله في «بني العباس»، ولذلك نبذ الملاهي وحرَّم الغناء والخمور وحارب الظلم.

حاول «المهتدي بالله» أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل بعضهم، فثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فرفض، فقاموا بخلعه وسجنه وتعذيبه حتى مات في (رجب سنة ٢٥٦هـ = يونيو ٨٧٠م).

وقد كان من أهم الأحداث التي شهدها عصر «المهتدي بالله»:

ثورة الزَّنج: وسُميت بذلك لأن أعداداً كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيداً سوداً، واندلعت هذه الثورة في «البصرة» بزعامة «علي بن محمد»، الذي قيل إنه ينتسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة في «العراق»، مثل «البصرة» و«واسط» و«الأهواز»، ووصلت إلى «البحرين» و«هجر»، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد استطاع القائد العباسي «الموفق طلحة بن المتوكل» القضاء على هذه الثورة ـ فيما بعد ـ سنة (٢٧٠هـ = ٨٨٣م) في خلافة أخيه «المعتمد على الله».

(٦) المعتمد على الله، أحمد بن المتوكل

(وصحوة الخلافة)

(٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ = ٨٧٠ ـ ٨٩٢م)

تولى «المعتمد على الله أحمد بن المتوكل» الخلافة بعد خلع «المهتدي» سنة (٢٥٦هـ = ٨٧٠م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها «المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عُرف باسم «صحوة الخلافة» في «العصر العباسي الثاني».

فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه قوي داخل الجيش بحتمية جَعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائداً للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام.

ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» سنة (٢٧٠هـ = ٨٨٣م) أعظم إنجاز له.

وقد تُوفِّي «الموفق» في (صفر سنة ٢٧٨هـ = مايو سنة ٨٩١م)، وفي العام التالي تُوفِّي الخليفة «المعتمد» في (رجب سنة ٢٧٩هـ = سبتمبر سنة ٨٩٢م)، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عاماً. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

(٧) المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق
(٢٧٩ - ٢٨٩هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م)

تولى الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد»، وكان قوي الشخصية؛ فحفظ هيبة الخلافة، كما كانت في عهد أبيه «الموفق» وعمه «المعتمد»، يقول «السيوطي»: كان «المعتضد» شهماً جلداً، موصوفاً بالرُّجلة (أي الشجاعة)، وقد خاض الحروب وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء.

وقد تمكن «المعتضد» خلال حكمه الذي دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، فقضى على مصادر الفتن والثورات، وأخمد ثورة «بني شيبان» بأرض الجزيرة سنة (٢٨٠هـ = ٨٩٣م)، وثورة «حمدان بن حمدون»

ـ رأس الأسرة الحمدانية ـ بالموصل، واستولى على قلعة «ماردين» التي كان يتحصن بها سنة (٢٨١هـ = ٨٩٤م)، كما قضى على ثورة الخوارج في «الموصل» بزعامة «هارون بن عبد الله الشاري» الذي وقع في الأسر، وأمر «المعتضد» بضرب عنقه سنة (٢٨٣هـ =٨٩٦م)، ومن أخطر الحركات التي شهدها عصر «المعتضد»:

ـ حركة القرامطة:

وترجع بداية هذه الحركة إلى عام (٢٧٨هـ = ٨٩١م) قبل تولّي «المعتضد» الخلافة بعام، حين قدم إلى «الكوفة» رجل اسمه «حمدان» ولقبه «قَرْمَط»، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام من آل البيت، فلقيت دعوته صدى كبيراً عند أنصار آل البيت، وحين خمدت سيطرته الروحية عليهم أخذ يبث فيهم أفكاراً غريبة عن الإسلام، منها: الشهادة بأن «أحمد بن محمد بن الحنفية» رسول الله، وأن القبلة إلى بيت المقدس، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، وغير ذلك من الأفكار الشاذة.

وقد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها «أبي سعيد الجناب» في «البحرين» سنة (٢٨٦هـ = ٨٩٩م)؛ حيث استطاع بسط سلطانه على «البحرين» و«هجر»، وكسب أنصارٍ كثيرين له في المناطق التي ينتشر فيها التشيع.

وقد تحولت «البحرين» إلى مركز رئيسي للقرامطة، خرجت منه حملاتهم الحربية في اتجاه «العراق» و«الحجاز» و«الشام»؛ لنشر أفكارهم الهدامة التي تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي، وبسط نفوذهم بواسطة خداع العامة بمبادئ وشعارات براقة، كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة العباسية مدى الخطورة التي تنطوي عليها هذه الحركة، ووجهت جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل: الحركة الصفارية والطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة من الخليفة «المعتضد» ـ الذي عاصر بدايتها الأولى ـ بما تستحقه من اهتمام.

انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد:

ظلت مدينة «سامراء» أو «سُرَّ من رأى» عاصمة الخلافة العباسية منذ حوالي سنة (٢٢١هـ = ٨٣٦م) ـ في خلافة «المعتصم بالله» ـ إلى أوائل خلافة

«المعتضد» الذي بنى «القصر الحسني» ببغداد، وقرر انتقال عاصمة الخلافة إليها سنة (٢٨٠هـ = ٨٩٣م)..

وفاة المعتضد:

تُوفِّي «المعتضد» في ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ = ٩٠٢م)، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش في عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين.

(٨) المكتفي بالله على بن المعتضد
(٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ = ٩٠٢ ـ ٩٠٨)

تولى الخلافة في (ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ = مارس سنة ٩٠٢م) عقب وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوباً لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه «المعتضد»، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيداً لعودة الأمور إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين «صحوة الخلافة» وانتكاستها.

وقد شهد عهد «المكتفي» أحداثاً كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم لـ«الشام» و«الحجاز» و«اليمن»، وقد جرت على يد زعيمهم «زكرويه بن مهرويه» مذابح بشعة ضد حجاج بيت الله الحرام وعامة الناس، ونشروا الفزع في أنحاء العالم الإسلامي، واستطاع «زكرويه» أن يهزم جيشاً للخليفة «المكتفي»، وأن يقتل منه عدداً كبيراً، فأعد له «المكتفي» جيشاً حشد فيه أكفأ القواد، نجح في قتل «زكرويه» وكثيراً من أتباعه عام (٢٩٤هـ = ٩٠٧م)، وتتبعهم في «العراق»، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم تماماً، فظلوا من بعده مصدر خطر مؤكد على كيان الخلافة.

ومما شهده عصر «المكتفي» أيضاً من أحداث: تولية «المكتفي» «أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبي» ولاية «الموصل» والبلاد التابعة لها سنة (٢٩٣هـ =٩٠٦م)، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل ـ فيما بعد ـ وضمهم «حلب» إليها، ونشأة «الأسرة الحمدانية».

وفاة المكتفي:

تُوفِّي «المكتفي» وفاة طبيعية في(ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ = أغسطس سنة ٩٠٨م)، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذي بذله أبوه «المعتضد» في جلب أسباب الاستقرار الاقتصادي إلى الدولة، وحسن سيرة «المكتفي بالله».

(٩) المقتدر بالله جعفر بن المعتضد
(٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ = ٩٠٨ ـ ٩٣٢م)

تولى الخلافة بعد أخيه «المكتفي» بعهد منه في (ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ = أغسطس سنة ٩٠٨م)، وكان صبياً في الثالثة عشرة من عمره، ولم يلِ الخلافة قبله أصغر منه.

أثار تولى «المقتدر» الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشؤون الخلافة مع وجود الأقدر منه على تحمل المسؤولية، خاصة «عبد الله بن المعتز» الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة الرأي، فاتفق رأي عدد منهم على خلع «المقتدر» وتولية «عبد الله بن المعتز»، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عاماً، وعندما عرضوا الأمر على «ابن المعتز» وافق بشرط ألا يُسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يُسلَّم إليه عفواً، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكُتَّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز في (١٩من ربيع الأول سنة ٢٩٦هـ = نوفمبر سنة ٩٠٨م)، ولُقِّبَ بالراضي بالله، ولكن أنصار «المقتدر» ـ وعلى رأسهم «مؤنس الخادم» ـ لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو «ابن المعتز» وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب «المقتدر» في اليوم التالي لبيعة «ابن المعتز»، الذي لم يمكث في الخلافة إلا يوماً أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء «بني العباس».

وقد تدهورت الأوضاع في عهد «المقتدر»، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة نهباً للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من

يده، وتحكَّم النساء والخدم في شؤون البلاد، فكانت «أم المقتدر» وتسمى «شغب» تولِّي من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان «مؤنس الخادم» صاحب مكانة متميزة وخطيرة في عهد «المقتدر».

وقد ازداد خطر القرامطة اتساعاً وعنفاً في عهد «المقتدر»، ووصل مداه سنة (٣١٧هـ = ٩٢٩م)، حينما دخلوا «مكة» بقيادة «أبي طاهر القرمطي» وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيسي «هَجَر» حتى تم رده إلى مكانه في عهد «المطيع» سنة (٣٣٩هـ = ٩٥٠م).

ـ بداية ظهور الفاطميين:

ومن أهم الأحداث في عهد «المقتدر» بداية ظهور العُبيديين أو الفاطميين في «شمالي إفريقيا». .

ويرجع الفضل في قيام «الدولة الفاطمية» إلى «أبي عبد الله الحسين بن أحمد»، المعروف بأبي عبد الله الشيعي، أحد دعاة الفاطميين البارزين في المغرب وكان يُعرف أحياناً باسم «المحتسب»؛ لأنه كان مراقباً لأسواق «البصرة» بالعراق قبل انتقاله إلى «المغرب».

وقد تمكن «أبو عبد الله الشيعي» من القضاء على «دولة الأغالبة» في «المغرب»، والاستيلاء على عاصمتهم «رقادة» سنة (٢٩٦هـ = ٩٠٩م)، وتم تنصيب أول إمام من أئمة الفاطميين وهو «عبيد الله المهدي» ـ وكنيته «أبو محمد» ـ الذي قيل إنه من سلالة الإمام «الحسين بن علي بن أبي طالب».

وقد تلقب «عبيد الله المهدي» بأمير المؤمنين، وبنى مدينة «المهدية» عاصمةً له، وانتقل إليها من «رقادة» سنة (٣٠٨هـ = ٩٢٠م)، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على «مصر» سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٩م)، في عهد الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله».

ـ قيام دولة بني حمدان:

ومن الأحداث المهمة التي شهدها عهد «المقتدر» ـ أيضاً ـ قيام دولة «بني حمدان» في «الموصل»، فقد استمر «أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان» يحكم

«الموصل» والبلاد التابعة لها من قِبل الخليفة «المكتفي» حتى وفاته سنة (٣١٧هـ = ٩٢٩م)، فورثه ابنه «حسن» الملقب «ناصر الدولة» على ولاية «الموصل»، واستطاع أن يمد سلطانه إلى «ديار ربيعة» و«مضر» بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة «المقتدر»، ونجحوا في بسط سلطانهم على «حلب» و «شمال الشام» سنة (٣٣٣هـ = ٩٤٥م) بقيادة زعيمهم المعروف «سيف الدولة الحمداني»، الذي قال فيه «المتنبي» أروع قصائد المديح.

وقد أسهم أمراء «بني حمدان» وفى مقدمتهم «سيف الدولة الحمداني» في صد غارات الروم (البيزنطيين) عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم مركزاً مرموقاً.

وفاة المقتدر بالله:

ساءت العلاقة بين «المقتدر بالله» وخادمه «مؤنس الخادم»؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار «مؤنس» في أواخر شوال سنة (٣٢٠هـ = ٩٣٢م)، بعد أن ظل في الحكم خمساً وعشرين سنة، هي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره.

ورغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد «المقتدر» فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهاراً ملحوظاً في هذا العصر. وبمقتل «المقتدر» دخل عصر نفوذ الأتراك مراحله الأخيرة.

(١٠) القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ = ٩٣٢ ـ ٩٣٤م)

تولى الخلافة في شوال سنة (٣٢٠هـ = ٩٣٢م)، عقب مقتل «المقتدر»، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وقد اتصف «القاهر» بالغلظة وقلة التثبت، ورغم أنه نجح في التخلص من «مؤنس الخادم»، صاحب النفوذ الأكبر في عهد «المقتدر»، ومن غيره من أعيان الدولة، فإن سوء سياسته كان سبباً في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به.

وقد لعب الوزير المشهور «أبو علي بن مقلة» الدور الأساسي في خلع «القاهر» والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه، فهاجم أعوانه الخليفة «القاهر» في دار الخلافة وقبضوا عليه وسملوا عينيه وعذبوه وأعلنوا خلعه في الثالث من جمادى الأولى سنة (٣٢٢هـ = ٩٣٤م).

ولعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدها عهد «القاهر» - رغم قصره - ظهور النفوذ البويهي في بلاد فارس سنة (٣٢١هـ = ٩٣٣م)، وكان ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم إلى «العراق» وسيطرتهم على مقاليد الأمور هناك في سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٥م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثاني، كما سنبين بعد قليل.

(١١) الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر
(٣٢٢ - ٣٢٩هـ = ٩٣٤ - ٩٤١م)

بايع الجند «الراضي بالله» في السادس من جمادى الأولى سنة (٣٢٢هـ) وعمره خمسة وعشرون عاماً، وقد كان من خيار الخلفاء، فاضلاً سمحاً جواداً، شاعراً محباً للعلماء.

ورغم ما كان يتحلى به «الراضي» من صفات حميدة، فإن أمر الخلافة قد اختل في عهده اختلالاً خطيراً، وازداد تمزق الدولة، واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور؛ فقد ازداد نفوذ البويهيين في فارس، وتطلعوا للاستيلاء على «العراق»، وتمتع «بنو حمدان» بنفوذ مطلق في «الموصل» و«ديار بكر» و«ربيعة» و«مضر»، واستقلت «الدولة الإخشيدية» في «مصر» و«الشام» عن الخلافة العباسية، وكذلك «الدولة السامانية» في «خراسان» و«ما وراء النهر» بزعامة «نصر بن أحمد السامان»، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في «الأندلس» تحت حكم «عبد الرحمن الثالث» الأموي الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ = ٩١٣ - ٩٦١م)، وسيطر «القرامطة» بزعامة «أبي طاهر القرمطي» على «البحرين» و«اليمامة».

- ظهور منصب أمير الأمراء:

وتدهورت الأوضاع في أوائل عهد «الراضي» تدهوراً كبيراً، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شؤون الدولة، وكان «محمد بن رائق»

والي «واسط» و«البصرة» واحداً من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً، فاختاره الخليفة «الراضي» ليقوم بمهمة إنقاذ الخلافة من التدهور الإداري الحاد الذي تعاني منه، وأسند إليه منصب «أمير الأمراء» في عام (٣٢٤هـ = ٩٣٦م).

وقد أصبح «محمد بن رائق» بمقتضى هذا المنصب الخطير الذي لم يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية، القائد الأعلى للجيش، والمسؤول عن إدارة شؤون الدولة والخراج، وأصدر الخليفة «الراضي» أمراً بأن يُخطَب لـ«ابن رائق» على جميع المنابر في جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة إلى منصب شرفي، وأصبح شاغل منصب «أمير الأمراء» هو الحاكم الفعليّ للبلاد؛ مما جعل كبار رجال الدولة أمثال «أبي عبد الله البريدي» صاحب «الأهواز»، و«بَجْكم التركي»، و«ناصر الدولة بن حمدان» صاحب «الموصل»، و«توزون التركي» رئيس الشرطة وغيرهم، يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا على زمام الأمور ووضعوا حداً لهذا الصراع.

وقد تُوفِّي الخليفة «الراضي بالله» وفاة طبيعية في (منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ = ديسمبر سنة ٩٤٠م)، بعد أن فقد السيطرة على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

(١٢) المتقي لله أبي إسحاق إبراهيم بن المقتدر
(٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ = ٩٤١ ـ ٩٤٥م)

تولى الخلافة في (ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ = ديسمبر سنة ٩٤٠م) بتدبير أمير الأمراء «بَجْكم التركي»، وكاتبه «أبي عبد الله الكوفي»، وكان عمره حينئذٍ أربعاً وثلاثين سنة.

وقد كانت خلافة «المتقي» القصيرة (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ = ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) عبارة عن سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيداً من الاضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية، وفقد «المتقي» سيطرته على زمام الأمور، فقام أمير الأمراء «توزون التركي» بسمل عينيه وخلعه، وبذلك انتهت خلافته في(صفر سنة ٣٣٣هـ = سبتمبر سنة ٩٤٤م).

(١٣) المستكفي بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك
(٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ = ٩٤٥ ـ ٩٤٦م)

تمت بيعته بالخلافة في (صفر سنة ٣٣٣هـ = سبتمبر سنة ٩٤٤) بحضور أمير الأمراء «توزون التركي» وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عاماً ولم يكن له أدنى سلطة في إدارة شؤون البلاد، بل استمر زمام الأمور في يد أمير الأمراء «أبي الوفاء توزون التركي»، وكاتبه «أبي جعفر بن شيرزاد»، وكان من أبرز الأحداث التي شهدتها خلافة «المستكفي بالله» امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة «سيف الدولة الحمداني» على «حلب» و«حمص» اللتين كانتا تحت سيطرة «الإخشيديين».

وتدهورت الأحوال الداخلية في عهد «المستكفي» بشكل غير مسبوق؛ مما أدى إلى تطلع البويهيين ـ أصحاب النفوذ في بلاد فارس ـ منذ سنة (٣٢١هـ = ٩٣٣م) إلى بسط سلطانهم على «العراق»، وقد نجحوا في ذلك سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٥م)، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العصر الثاني للخلافة العباسية، عُرفت فيما بعد باسم «عصر نفوذ البويهيين».

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك:

لم ينحصر ظهور الحركات الاستقلالية في عصر نفوذ الأتراك، بل ظهرت هذه الحركات منذ فجر الخلافة العباسية، فاستقل «عبد الرحمن الداخل» بـ«الأندلس» سنة (١٣٨هـ = ٧٥٥م) في عهد «أبى جعفر المنصور»، وقامت «دولة الأدارسة» في «المغرب الأقصى» على يد «إدريس بن عبد الله»، و«دولة الأغالبة» على يد «إبراهيم بن الأغلب» في «تونس»، في عهد «هارون الرشيد».

وفى خلافة «المأمون» تأسست «الدولة الطاهرية» في «خراسان» على يد «طاهر بن الحسين» قائد «المأمون» المشهور، وكانت دولتا الأغالبة، والطاهرية تدينان بالولاء الأسمى للخليفة العباسي، وقد مرت إشارات سريعة إلى الدول التي استقلت عن الخلافة في عصر نفوذ الأتراك وهي: «الدولة الصفَّارية»، و«السامانية» و«الطولونية» و«الإخشيدية» و«الحمدانية» و«دولة القرامطة»، و«الدولة الفاطمية»، و«البويهية».

وفيما يلي نبذة مختصرة عن أهم هذه الدول:

١ ـ الدولة الصفَّارية (٢٥٤ ـ ٢٨٩هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٢م):

أسسها «يعقوب بن الليث الصفَّار» في بلاد «فارس» و«خراسان» على أنقاض «الدولة الطاهرية»، في عهد «المعتز بالله» (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ) بعد أن أظهر كفاءة ملحوظة في محاربة الخارجين على الخلافة والتخلص من الطاهريين بإذن من الخليفة العباسي «المعتز بالله».

واستطاع «يعقوب بن الليث» أن يضم إلى «الدولة الصفَّارية» كثيراً من الأماكن التي استطاع السيطرة عليها في بلاد «فارس» و«خراسان»، وأعلن ولاء دولته ـ في البداية ـ للخلافة العباسية.

وعندما تولى «المعتمد على الله» الخلافة، أصر أخوه «الموفق» على أن يكون ولاء «الدولة الصفَّارية» للخلافة ولاءً تاماً لا صورياً، إلا أن «يعقوب بن الليث» رفض ذلك، وتدهورت العلاقة بين الطرفين، وهدد «يعقوب» بدخول عاصمة الخلافة وبسط سلطانه عليها، مما أدى إلى حدوث صدام مسلح بين «الدولة الصفَّارية»، والخلافة في منطقة «واسط» بالعراق، وكان لظهور الخليفة العباسي «المعتمد» على رأس جيش الخلافة أثر كبير في هزيمة «يعقوب بن الليث»، ورغم هزيمته فقد استمر في تحدي الخلافة ورفض التفاهم معها حتى تُوفى في «جنديسابور» سنة (٢٦٥هـ = ٨٧٩م)، ثم تولى رئاسة «الدولة الصفَّارية» بعد وفاة «يعقوب بن الليث» أخوه «عمرو بن الليث»، الذي كان حريصاً على كسب ود الخلافة حتى يؤكد سلطانه الروحي في بلاده، فاعترف به الخليفة «المعتمد» والياً على «خراسان» و«السِّند» و«سجستان» و«كرمان» و«فارس» و«أصبهان»، وعندما تولى «المعتضد» الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد» أقر «عَمْراً» على ما في يده.

وقد نشط «عمرو» في توسيع حدود دولته، وتطلع إلى غزو بلاد «ما وراء النهر»، حيث «الدولة السامانية»، وعبر نهر «جيحون» ولكن السامانيين تصدوا له بقيادة زعيمهم «إسماعيل بن أحمد الساماني» وهزموه، وأخذوه أسيراً إلى الخليفة «المعتضد» الذي سجنه حتى مات في سجنه سنة (٢٨٧هـ = ٩٠٠م)، وقد تولى

زعامة الصفَّاريين بعد هزيمة «عمرو» وأسره حفيده «طاهر بن محمد بن عمرو»، ولكن أحوال الصفَّاريين تدهورت بشدة خلال هذه الفترة نتيجة الهجمات المتلاحقة التي شنها عليهم السامانيون، وسقطت دولتهم سنة (٢٨٩هـ = ٩٠٢م).

وقد لاحظ المؤرخون أن قادة هذه الدولة اتبعوا في حياتهم مبدأ العدالة والمساواة والأخوة، والبعد عن مظاهر الترف، فكانت حياة رئيس الدولة لا تكاد تختلف في مظهرها عن حياة أحد جنوده، وكان العطاء يوزع بالإنصاف والعدل، وقد ازدهر اقتصاد الدولة نتيجة البعد عن إنفاق الأموال في غير وجوهها، فيروى أن «يعقوب بن الليث» ترك في خزانة الدولة عند وفاته ثمانين مليون دينار وخمسين مليون درهم، ولكن يؤخذ عليه اعتداده بقوته وطاعة جنده فتمرد على الخلافة وحاول الاستقلال عنها؛ مما زعزع ثقتها به وكان له آثاره السلبية في تماسك الدولة واستمرارها.

٢ ـ الدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ = ٨٧٥ ـ ٩٩٩م):

ظهر السامانيون على المسرح السياسي لدولة الخلافة العباسية في عصر الخليفة «المأمون» (١٩٨ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م)، وسُموا بذلك نسبة إلى قرية «سامان» القريبة من «سمرقند»؛ حيث كانوا يتوارثون إمارتها، ويسمى أميرهم «سامان خداه»، أي كبير قرية «سامان» وصاحبها.

وقد اعتنق أحد السامانيين الإسلام أثناء خلافة الأمويين، وسمى ابنه «أسداً»، كاسم حاكم «خراسان» في عهد «هشام بن عبد الملك»، واسمه «أسد بن عبد الله الكسري».

وطال العمر بأسد السامان حتى أدرك «المأمون»، فذهب إليه في «مرو»، قبل انتقاله إلى «بغداد» (في الفترة من سنة ١٩٣هـ = ٨٠٩م إلى سنة ٢٠٢هـ = ٨١٧م)، ومعه أبناؤه الأربعة: «نوح» و«أحمد»، و«إلياس»، و«يحيى»، فاحتفى بهم «المأمون» وألحقهم بخدمته.

وبعد انتقال «المأمون» إلى «بغداد» أمر بإسناد عمل إلى كل واحد من أبناء «أسد السامان»، فتم إسناد حكم «سمرقند» إلى «نوح»، وحكم «فرغانة» إلى

«أحمد»، وحكم «الشاش» إلى «يحيى»، وحكم «هراة» إلى «إلياس»، فكان هذا مقدمة لتمكن نفوذ السامانيين في هذه المناطق المعروفة باسم «بلاد ما وراء النهر» (نهر جيحون). .

وقد برز «أحمد بن أسد» حاكم «فرغانة» على إخوته، وكان له سبعة أبناء هم «نصر» و«يحيى» و«يعقوب» و«إسماعيل» و«إسحاق» و«أسد» و«حميد»، وعند وفاته سنة (٢٥٠هـ = ٨٦٤م) حل محله ابنه الأكبر «نصر»، ودان له باقي إخوته بالطاعة والولاء.

وفى سنة (٢٦١هـ = ٨٧٥م) حدَث التحول الحاسم في تاريخ السامانيين، حينما أسند الخليفة «المعتمد على الله» ولاية جميع بلاد «ما وراء النهر» إلى «نصر بن أحمد بن أسد السامان»، فأقام «نصر» في «سمرقند»، وعين أخاه «إسماعيل» نائباً عنه ببخارى وعهد إلى كل أخ من إخوته الباقين بحكم إحدى الولايات، مما يمكن معه اعتبار عام (٢٦١هـ = ٨٧٥م) بداية تكوُّن «الدولة السامانية».

وعقب وفاة «نصر بن أحمد» في «سمرقند» عام (٢٧٩هـ = ٨٩٢م) ضم أخوه «إسماعيل» «سمرقند» إلى ملكه، وأصبح هو الحاكم الأعلى لكل بلاد «ما وراء النهر»؛ لذلك يرى بعض المؤرخين أن «إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني» هو المؤسس الحقيقي للدولة السامانية؛ حيث خضع له سائر الأمراء السامانيين، ووسع حدود الدولة، فضم لها «خراسان» ومعظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ «الدولة الصفَّارية»، وبلغت «الدولة السامانية» قمة مجدها في عهده (من ٢٧٩ ـ ٢٩٥هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠٨م) ثم في عهد حفيده «نصر بن أحمد بن إسماعيل» (٣٠١ ـ ٣٣١هـ = ٩١٣ ـ ٩٤٣م)، وبدأت «الدولة السامانية» تتدهور منذ عهد «نوح بن نصر» (٣٣١ ـ ٣٤٣هـ = ٩٤٣ ـ ٩٥٤م)، حتى سقطت في يد الغزنويين سنة (٣٨٩هـ = ٩٩٩م). .

وقد كانت «الدولة السامانية» ملتزمة بمذهب أهل السنة، وكانت علاقتها بالخلافة العباسية علاقة احترام وإجلال؛ حيث كان أمراؤها يعدون أنفسهم نواباً عن الخليفة. وقد ازدهرت الحياة العلمية في عصر السامانيين، وكانت «بخارى»، و«سمرقند» تنافسان «بغداد» في مكانتها العلمية والأدبية، بسبب تشجيع الأمراء السامانيين للعلم وحبهم للعلماء، فقد سمح الأمير الساماني «أبو القاسم نوح بن

منصور» (نوح الثاني) لابن سينا باستخدام مكتبة قصره، كما قام الطبيب والفيلسوف المشهور «أبو بكر الرازي» (٢٥١ - ٣١٣هـ = ٨٦٥ - ٩٢٥م) بإهداء كتابه المعروف في الطب إلى الأمير الساماني «أبي صالح منصور بن إسحاق» أمير «سجستان».

وقد شهد الأدب الفارسي أيضاً عصره الذهبي خلال حكم السامانيين، وعاش الشاعر الفارسي المعروف «الفردوسي» شطراً من حياته في عصر «الدولة السامانية».

٣ - دولة بني حمدان في الموصل وحلب (٢٩٣ - ٣٩٢هـ = ٩٠٦ - ١٠٠٢م):

ينتمي الحمدانيون إلى «حمدان بن حمدون بن الحارث» من قبيلة «تغلب»، وقد ظهر نفوذ «حمدان» في شمال «العراق» سنة (٢٥٤هـ) أثناء خلافة «المعتز بالله»، وتعاون مع خوارج الجزيرة في شمال «العراق»، واستطاع أن يسيطر على بعض المواقع الحصينة هناك، وأهمها «قلعة ماردين»، ولكن الخليفة «المعتضد بالله» استطاع استردادها، وقبض على «حمدان» وسجنه.

تعهد «حسين بن حمدان» بالطاعة والولاء للخليفة «المعتضد» وساعده في حربه ضد الخوارج حتى هزمهم، فقربه الخليفة وعفا عن والده «حمدان بن حمدون».

وفى خلافة «المكتفي بالله» (٢٨٩ - ٢٩٥هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨م) تعاظمت مكانة «حسين بن حمدان»، وقام بدور بارز في الحرب ضد القرامطة، وفي الحملة التي جهزها العباسيون لاسترداد «مصر» من يد الطولونيين في سنة (٢٩٢هـ = ٩٠٥م).

وقد شارك «حسين بن حمدان» في المؤامرة الفاشلة التي دبرها أنصار «ابن المعتز» لخلع «المقتدر»، وهرب حتى عفا عنه «المقتدر» وأسند إليه ولاية بعض البلاد، وأهمها «ديار ربيعة» بالجزيرة سنة (٢٩٨هـ = ٩١١م)، إلا أنه حدث بينه وبين «علي بن عيسى» وزير «المقتدر» نزاع انتهى بالقبض عليه، وقتله في سجنه سنة (٣٠٦هـ = ٩١٨م)..

ورغم أن «حسين بن حمدان» كان من أعظم الأمراء بأساً وشجاعة، وكان أول من ظهر أمره من ملوك «بنى حمدان» فإن أخاه «أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان» كان أعمق تأثيراً وأوسع نفوذاً في تاريخ الأسرة الحمدانية، وقد ولاه الخليفة «المكتفي»

إمارة «الموصل» وتوابعها سنة (٢٩٣هـ = ٩٠٦م)، ويعد «أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان» المؤسس الحقيقي لمملكة الحمدانيين في «الموصل»، التي ظل حاكماً لها إلى أن قتل سنة (٣١٧هـ = ٩٢٩م) عقب اشتراكه في المؤامرة الفاشلة لخلع الخليفة «المقتدر»، وقد خلفه ابنه «حسن» الملقب بناصر الدولة، واستطاع أن يمد سلطانه على أقاليم الجزيرة الثلاثة: «ديار ربيعة»، و«ديار مضر» و«ديار بكر»، بإذن من الخليفة «الراضي»، حتى أقعدته الشيخوخة، فخلفه على الحكم ابنه «فضل الله أبو تغلب الغضنفر» سنة (٣٥٣هـ = ٩٦٤م)..

وقد دخل «ناصر الدولة» وابنه «أبو تغلب الغضنفر» في صراع طويل مع البويهيين، أصحاب السلطة في «العراق» منذ سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٥م)، وانتهى هذا الصراع بهزيمة «أبى تغلب الغضنفر» أمام «عضد الدولة البويهى» سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٩م)، وانتهت بذلك مملكة الحمدانيين في «الموصل» و«الجزيرة».

أما «الدولة الحمدانية» في «حلب»، فقد أسسها «على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان»، الملقب بسيف الدولة؛ حيث استطاع بمعاونة أخيه الأكبر «ناصر الدولة» انتزاع «حلب» من الإخشيديين سنة (٣٣٣هـ = ٩٤٤م)، ثم استطاع بعد ذلك أن يبسط سلطانه على «حمص» و«قنسرين» و«العواصم» وبعض بلاد «الجزيرة» سنة (٣٣٦هـ = ٩٤٧م)..

وقد قام «سيف الدولة الحمداني» بمهمة جليلة أثناء حكمه الذي استمر حتى سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٧م)، وهي حماية حدود دولة الخلافة من غارات الروم «البيزنطيين» المتواصلة، بعد أن ضعفت الخلافة المركزية عن القيام بهذه المهمة المقدسة.

وكان «سيف الدولة الحمداني» أديباً شاعراً، فجمع حوله العلماء والأدباء، مثل «أبى نصر الفارابي»، و«ابن خالويه»، و«أبى الطيب المتنبي»، و«أبى فراس الحمداني» و«ابن نباتة» و«السري الرَّفَّاء»، وغيرهم.

وتُوفِّى «سيف الدولة» سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٧م)، وخلفه في الحكم ابنه «أبو المعالي شريف» المعروف بسعد الدولة، وضعفت في عهده سلطة الحمدانيين في

«الشام»؛ لكثرة الضغوط التي تعرض لها من «البيزنطيين» و«البويهيين» في «العراق»، و«الفاطميين» في «مصر» بغرض الاستيلاء على «الشام».

وتُوفِّي «سعد الدولة» سنة (٣٨١هـ = ٩٩١م)، وتولَّى بعده ابنه «أبو الفضائل سعيد الدولة»، الذي تعرض لضغوط «الفاطميين» المتزايدة لضم «الشام» إلى «مصر»، فتحالف مع «البيزنطيين» لصد هجمات «الفاطميين» عليه، ثم انتهت إمارته بمقتله سنة (٣٩٢هـ = ١٠٠٢م) على يد وزيره «لؤلؤ الحاجب»، وانتهت بذلك «الدولة الحمدانية» في «الشام» الذي أصبح خاضعاً لسلطان الفاطميين.

وقد كان الحمدانيون يميلون إلى التشيع، وكانت علاقتهم بالخلافة العباسية تتأرجح بين الرضا، والسخط، والتوجس.

٤ ـ دولة بني بويه قبل انتقالها إلى بغداد:

ينتسب البويهيون إلى «أبي شجاع بويه» الذي نشأ في «بلاد الديلم» التي تقع جنوبي غربي «بحر قزوين» أو «بحر الخزر» بين منطقتي «طبرستان» و«الجبال». وكانت هذه البلاد معقلاً لنفوذ العلويين، فانتشر فيها التشيع.

ورغم أن «أبا شجاع بويه» كان فقيراً فإنه كان يتحلى بروح المغامرة والشجاعة، كما تشرّب الروح الشيعية التي كانت سائدة في «بلاد الديلم».

وقد انضم «أبو شجاع» إلى العلويين في صراعهم مع السامانيين، ومع ذلك فلم يكن هو المؤسس الحقيقي لأسرة «بنى بويه»، وإنّما كان أبناؤه الثلاثة «علي»، و«حسن»، و«أحمد» هم الذين قاموا بذلك، فقد التحق أبناؤه بخدمة «ماكان بن كاكي» أحد القواد البارزين المناصرين للداعية الشيعي «الحسن بن علي»، الملقب بالأطروش، وأبرزوا تميزاً في خدمته فارتقوا من مرتبة الجنود إلى رتبة القادة، ثم حدث صراع بين «ماكان» و«مرداويج بن زيار» أحد القادة الفرس في منطقة «الديلم»، وأحس أبناء «بويه» أن كفة «مرداويج» هي الراجحة في هذا الصراع، فانضموا إليه، فيما بين عامي (٣١٦و٣١٧هـ = ٩٢٨ و ٩٢٩م)، وكان ذلك بداية تمكن نفوذهم في فارس والمناطق المحيطة بها.

وقد ظهر «بنو بويه» ـ أو «البويهيون» ـ على مسرح الأحداث في أواخر عصر

نفوذ «الأتراك»، فبدءوا منذ عام (٣٢١هـ = ٩٣٣م) يؤسسون لأنفسهم مناطق نفوذ تخضع لسيطرتهم التامة، فاستولوا على «فارس»، و«شيراز» و«أصبهان»، و«الري»، و«همذان» و«الكرج» و«كرمان»، وأغراهم ذلك على التطلع إلى مد نفوذهم إلى «العراق» موطن الخلافة العباسية.

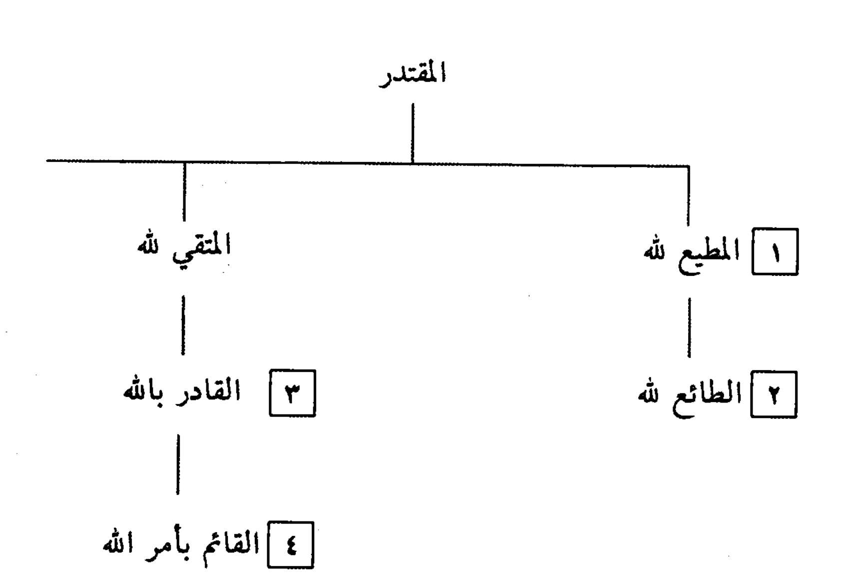
وقد ساعدهم على ذلك تضاؤل النفوذ التركي، واشتداد الصراع على منصب «أمير الأمراء» الذي ابتدعه الخليفة «الراضي بالله» سنة (٣٢٤هـ = ٩٣٦م)، مما أدى إلى تمزق الكلمة وضعف الجبهة التي يمكن أن تحمى دار الخلافة، فلم يجد «أحمد بن بويه» أي صعوبة في دخول «بغداد» والسيطرة عليها بدون قتال في (الحادي عشر من جمادى الأولى سنة٣٣٤هـ = يناير سنة ٩٤٦م)..

عصر نفوذ البويهيين

(٣٣٤ ــ ٤٤٧هـ)

وعدد خلفائه ٤



ثانياً: عصر نفوذ البويهيين

(٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ = ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م)

عندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» في جمادى الأولى سنة (٣٣٤هـ = ديسمبر سنة ٩٤٥م) كان «المستكفي بالله» هو الخليفة العباسي، ولم يكن أمامه إلا أن يُظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه الخُلَع ولقبه «معز الدولة»، كما لقَّب أخاه «علياً» «عماد الدولة»، وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، وأمر بأن تُضرَبَ ألقابهم وكُناهم على الدنانير والدراهم، وكان «علي بن بويه» حاكماً لإقليم «فارس»، و«الحسن بن بويه» حاكماً لعدة أقاليم أهمها «الري»، و«الجبل»، و«أصفهان»، في حين دخل أخوهم الأصغر «أحمد» «بغداد».

وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا الخليفة من كل سلطاته، وعدُّوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة الشرعية على سلطانهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه، وسلبوه حقه في تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتباً (سكرتيراً) فقط يشرف على أمواله.

ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية السُنِّية في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم وسلطانهم، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السني الذي يستطيعون هم أن يفعلوا به ما يشاءون.

وقد برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفي» على صدق ذلك، فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن بويه» على الخليفة «المستكفي»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم ـ وهم قوم «معز الدولة» ـ فمدَّ الخليفة يده إليهما ظناً منه أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه وطرحاه أرضاً، وجرَّاه بعمامته، ثم هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز

الدولة» إلى منزله، وساقوا الخليفة «المستكفي» ماشياً إليه، ثم انتهت هذه المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه.

وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»، فإننا نجد أن الخلفاء الذين شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا أربعة هم:

١ - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد» (٣٣٤ - ٣٦٣هـ = ٩٤٥ - ٩٧٤م).

٢ - الطائع لله «أبو بكر عبد الكريم بن المطيع» (٣٦٣ - ٣٨١هـ = ٩٧٤ - ٩٩١م).

٣ - القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» (٣٨١ - ٤٢٢هـ = ٩٩١ - ١٠٣١م).

٤ - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبد الله بن القادر» (٤٢٢ - ٤٦٧هـ = ١٠٣١ - ١٠٧٥م).

أولاً: خلافة المطيع لله
(٣٣٤ - ٣٦٣هـ = ٩٤٥ - ٩٧٤م)

بعد أن أمر «معز الدولة أحمد بن بويه» بخلع «المستكفي» في (جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٥م)، أحضر «أبا القاسم الفضل بن المقتدر» وبايعه بالخلافة، ولقَّبه بالمطيع لله، وعمره - حينئذٍ - أربع وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتباً مائة دينار في اليوم.

وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثاً كثيرة، أولها: نشوب الصراع بين البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن بويه)، وبين الحمدانيين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة» (الحسين بن عبد الله)، وقد استمر هذا الصراع طويلاً في محاولة كل منهما الإطاحة بالآخر، وفى (المحرم سنة ٣٣٥هـ = أغسطس سنة ٩٤٦م) تم الصلح بين «معز الدولة البويهي» وبين «ناصر الدولة الحمداني» على أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين في «بغداد» كل عام.

وفى سنة (٣٣٦هـ = ٩٤٧م) استطاع «معز الدولة» أن يستولي على «البصرة» بعد هروب صاحبها «أبي القاسم عبد الله بن أبي عبد الله البريدي» إلى القرامطة في «هجر».

وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائباً في «بغداد» عن أخيه الأكبر «عماد الدولة» (علي بن بويه) في «فارس»، ثم عن أخيه الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة «عماد الدولة».

ورغم أن الخليفة العباسي كان تحت سيطرة البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط.

وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعي، واتخذ «معز الدولة» في سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت في إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففي (ربيع الآخر سنة ٣٥١هـ = مايو سنة ٩٦٢م) أصدر «معز الدولة» أمراً بأن يُكتَب على المساجد لَعْنُ «معاوية بن أبي سفيان» وغيره من الصحابة كأبي بكر وعمر؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسي منع ذلك، وفي العاشر من (المحرم سنة ٣٥٢هـ = يناير سنة ٩٦٣م) أصدر «معز الدولة» أمراً بتوقف الناس عن البيع والشراء في ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعويل، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلطمن الوجوه على «الحسين بن علي بن أبي طالب» في ذكرى استشهاده بكربلاء، وكان هذا أول يوم يحدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة، وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم.

وقد أحدثت هذه المظاهر الشاذة آثارها السيئة بين الناس، ففي العاشر من (المحرم سنة ٣٥٣هـ = يناير سنة ٩٦٤م) - على سبيل المثال - تم إغلاق الأسواق في «بغداد»، وفعل الناس ما تقدم ذكره، فثارت فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة، أُصيب فيها كثيرون ونُهبت الأموال، وجدير بالذكر أن هذه الممارسات التي شجعها البويهيون ما تزال آثارها موجودة حتى الآن.

ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تخليص «عُمان» في (ذي الحجة سنة ٣٥٥هـ = نوفمبر سنة ٩٦٦م) من يد القرامطة الذين كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فساداً، فأصبحت بذلك ضمن مملكة البويهيين.

ظل «معز الدولة» اثنين وعشرين عاماً يدير الأمور في «بغداد»، حتى تُوفِّي في الثالث عشر من (ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ = مارس سنة ٩٦٧م)، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولُقب «عزُّ الدولة».

وقد قدَّم «عزّ الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته في اللهو والتسلية وعِشرة النساء والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة، وعلى رأسهم الخليفة في سبيل ذلك.

ففي سنة (٣٦١هـ = ٩٧٢م) هاجم الروم ثغور «الجزيرة» ومن بينها «الرها» و«نصيبين»، فأحرقوا البلاد وخربوها وغنموا وسلبوا ما استطاعوا، ولم يجدوا من يردعهم بعد وفاة «سيف الدولة الحمداني» سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٧م)، فسار جماعة من أهل «الجزيرة» إلى «بغداد» لاستنفار المسلمين ضد الروم، فاستعظم الناس ذلك، وتوجهوا إلى «عز الدولة بختيار»، وأنكروا عليه انشغاله باللهو والصيد عن جهاد الروم الذين انتهكوا حرمة دار الإسلام، فوعدهم بالإعداد لغزوهم، واتصل بالخليفة «المطيع لله» يطلب منه المال ليجهز به المسلمين للغزو، ولكن «المطيع لله» أجابه بقوله: «إن الغَزاة والنفقة عليها، وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وتُجبَى إليَّ الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم مَن البلاد في يده، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت»، فهدد «بختيار» الخليفة «المطيع» واضطره إلى دفع أربعمائة ألف درهم، فلما قبضها «عز الدولة» صرفها في مصالحه وملذاته!.

ونتيجة لسوء طبع «بختيار» واضمحلال شخصيته، بدأت أسباب الشقاق والفتنة تظهر بين البويهيين، فقد حاول ابن عمه «ركن الدولة» والملقب فيما بعد «عضد الدولة» انتزاع «العراق» من «بختيار» ولكن والده «ركن الدولة» اعترض على ذلك، فاضطر «عضد الدولة» إلى تأجيل ذلك إلى ما بعد وفاة والده.

ولعل من أخطر الأحداث التي شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة «الفاطميين» على «مصر» سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٩م)، وكانت «مصر» حينئذٍ تحت حكم «الإخشيديين» الذين كانوا يخضعون للخليفة العباسي من الناحية الشكلية، فلما دخلها القائد الفاطمي «جوهر الصقلي» في(شعبان سنة ٣٥٨هـ = يونيو سنة ٩٦٩م)، شرع في بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر سنة (٣٦١هـ = ٩٧٢م)، وظل حاكماً لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» حتى سنة (٣٦٢هـ = ٩٧٣م)، حين قدم «المعز» إلى «مصر» في رمضان من هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت مقراً للخلافة الفاطمية الشيعية حتى سنة (٥٦٧هـ = ١١٧٢م).

ظَلَّ «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عاماً»، حتى أُصيب بالفالج - وهو الشلل النصفي - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سُبُكْتكين»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبد الكريم»، فتم ذلك في (١٣من ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ = يوليو سنة ٩٧٤م)، ولُقِّبَ «عبد الكريم» بـ«الطائع لله».

ثانياً: خلافة الطائع لله
(٣٦٣ - ٣٨١هـ = ٩٧٤ - ٩٩١م)

تولى «الطائع لله» الخلافة في (ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ = يوليو سنة ٩٧٤م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد تُوفِّي والده «المطيع لله» بعد ذلك بفترة قصيرة، في (سنة المحرم سنة ٣٦٤هـ = سبتمبر ٩٧٤م).

في بداية خلافة «الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة» جند «بختيار» على الثورة عليه، ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر في أمورهم، فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه في (جمادى الآخرة سنة ٣٦٤هـ = فبراير سنة ٩٧٥م)، وأصبحت «بغداد» و«العراق» تحت سلطان «عضد الدولة»..

وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهي ووالد «عضد الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه الصورة، فكتب إلى أنصار

«بختيار» يساندهم ويأمرهم بالثبات والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه وردَّ إليه ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في (شوال سنة ٣٦٤هـ = يونيو سنة ٩٧٥م)، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب الإرادة خلال هذه الفتنة، لاحول له ولا قوة.

وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في (جمادى الأولى سنة ٣٦٥هـ = يناير سنة ٩٧٦م) فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبى الحسن علي) «همدان» وأعمال «الجبل»، ولولده «مؤيد الدولة» «أبى منصور بويه» «أصبهان» وأعمالها، وجعلهما تحت رئاسة أخيهما «عضد الدولة»، وأوصاهم بالاتفاق وترك التنازع.

وفي (المحرم سنة ٣٦٦هـ = أغسطس سنة ٩٧٦م) تُوفِّى «ركن الدولة» فأصبح ابنه «عضد الدولة» زعيم البويهيين بلا منازع.

وفي العام نفسه حشد «عضد الدولة» جنوده لغزو «العراق»، وكان «بختيار» ووزيره «أبو طاهر محمد بن محمد بن بقية» يعْلَمَانِ نيات «عضد الدولة» فحاولا استمالة كبار الأمراء من حكام الأقاليم المختلفة، مثل «فخر الدولة بن ركن الدولة»، و«أبي تغلب بن حمدان» وغيرهما، وحدثت بعض المعارك بين جيوش «عضد الدولة» وجيوش «بختيار» سنة (٣٦٦هـ = ٩٧٦م) انتهت بهزيمة «بختيار» وفراره من «بغداد» إلى «الموصل» حيث تحالف مع واليها «أبي تغلب بن حمدان» ضد «عضد الدولة»، فسار إليهما «عضد الدولة» وهزمهما بالقرب من «تكريت» في (شوال سنة ٣٦٧هـ = مايو سنة ٩٧٨م) وأسر «بختيار» وقتله، وضم مملكة الحمدانيين في «الموصل» و«الجزيرة» إلى أملاكه، واتخذ «العراق» مقراً لحكمه.

اهتم «عضد الدولة» بدعم سلطانه وتوسيع أملاكه؛ ففي سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٨م) فتح «ميَّافارقين» و«آمد» و«ديار بكر»، و«ديار مضر» منهياً بذلك نفوذ «أبى تغلب بن حمدان» في بلاد «الجزيرة».

وفى عام (٣٦٩هـ = ٩٧٩م) استولى على الأقاليم الخاضعة لأخيه «فخر الدولة» بسبب وقوفه إلى جانب «بختيار»، فاستولى على «همدان» و«الري» وما بينهما من

البلاد، وعيَّن عليها أخاه «مؤيد الدولة» نائباً عنه في حكمها، وفي سنة (٣٧١هـ = ٩٨١م) ضمَّ إلى نفوذه بلاد «جرجان» و«طبرستان» بعد أن أجلى عنها صاحبها «قابوس بن أبي طاهر» و«شمكير» (أحد أمراء آل زيار)، فتعاظم بذلك نفوذ «عضد الدولة» وذاع صيته وتمكنت هيبته، وكان أول من خوطب بشاهنشاه في الإسلام، وأول من خُطب له على منابر «بغداد» بعد الخلفاء.

وقد كان لعضد الدولة إنجازات حضارية بالإضافة إلى أمجاده الحربية، فبعد دخوله «بغداد» بدأ في عمارتها، كما أمر بإخراج أموال الصدقات وتسليمها للقضاة وأعيان الناس، لإعانة من يستحق، وبدفع أموال للعاطلين الذين يتعذر عليهم الحصول على العمل، بما يكفي احتياجاتهم، ثم يردونها بعد ذلك إذا عملوا.

كما اهتم «عضد الدولة» بالعلم والعلماء، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم بمظاهر التكريم، وقد كان مجلسه منتدى للعلماء، تدور فيه المناقشات الدقيقة في فروع العلم المختلفة، وكان يشترك مع العلماء في هذه المناقشات ويعارضهم في المسائل، ومن أبرز هؤلاء العلماء «أبو علي الفارسي» الذي صنَّف له كتاب «الإيضاح» و«التكملة» في النحو، وكان «عضد الدولة» يقول: «أنا غلام أبي علي في النحو»، ومنهم أيضاً «أبو إسحاق الصابي» الذي صنف لعضد الدولة كتاب «التاجي في أخبار بني بويه».

وكان «عضد الدولة» يحب الشعر ويطرب له، ويقرضه أحياناً، ويغمر الشعراء بفيض كرمه وجزيل عطائه، فقصده عدد من فحول الشعراء في عصره، وكتبوا فيه أروع قصائد المديح، وفي مقدمتهم «أبو الطيب المتنبي» سنة (٣٥٤هـ = ٩٦٥م)، و«أبو الحسن محمد بن عبد الله السلام» أبرز شعراء «العراق»، وكان «عضد الدولة» يقول: «إذا رأيت السَّلامي في مجلسي ظننت أن عطارد قد نزل من الفَلك إليَّ ووقف بين يدي».

وقد اقتدى «مؤيد الدولة» و«فخر الدولة» بأخيهما «عضد الدولة» في تشجيع العلم وإكرام أهله، فعين «مؤيد الدولة» «الصاحبَ بن عباد» وزيراً له سنة (٣٦٦هـ = ٩٧٦م)، وكان من أعظم رعاة العلم والأدب، وعقب وفاة «مؤيد الدولة» واستيلاء أخيه «فخر الدولة» على مملكته أقر «الصاحب بن عباد» على وزارته، وعيَّن مفكر

المعتزلة المشهور «عبد الجبار بن أحمد» قاضي قضاة للري سنة (٣٦٧هـ = ٩٧٨م) لصلته بالصاحب بن عباد، ثم عزله «فخر الدولة» سنة (٣٨٥هـ = ٩٩٥م) حينما تُوفِّي «الصاحب بن عباد».

وفاة عضد الدولة وبداية التفكك في البيت البويهى:

تُوفِّي «عضد الدولة» في (شوال سنة ٣٧٢هـ = مارس سنة ٩٨٣م)، وعمره ثمانٍ وأربعون سنة، وقد تركت وفاته فراغاً هائلاً تعذر على خلفائه أن يملئوه.

وكان أخطر ما ترتب على وفاة «عضد الدولة»، الصراع الذي نشب بين أولاده الخمسة على السلطة، وهم: «أبو كاليجار المرزبان» «صمصام الدولة»، و«أبو الحسين أحمد»، و«أبو طاهر فيروز شاه»، و«أبو الفوارس شيرزيل» الملقب «شرف الدولة»، و«أبو نصر فيروز» الملقب «بهاء الدولة».

وقد استقر الأمراء والقادة على اختيار «أبى كاليجار المرزبان» ليكون خلفاً لأبيه «عضد الدولة»، ولقبوه «صمصام الدولة» وأقر الخليفة «الطائع لله» هذا الاختيار وخلع على «صمصام الدولة» سبع خلع، ولقبه «شمس الملة»، فلم يكن للخليفة دور سوى إقرار ما يتفق عليه القادة والأمراء.

وقد واجه «صمصام الدولة» انشقاقاً من أخيه «شرف الدولة» الذي استطاع الاستقلال ببلاد «فارس» والاستيلاء على «البصرة»، وتعيين أخيه «أبى الحسين أحمد» نائباً عنه في حكمها، كما تمكن من هزيمة الجيش الذي أرسله إليه «صمصام الدولة» ليسترد منه بلاد «فارس».

وقد استطاع «صمصام الدولة» استمالة عمه «فخر الدولة» إلى صفه في هذا الصراع، ولكن جنده في «بغداد» ثاروا عليه وأعلنوا بيعتهم لشرف الدولة، ورغم أن «صمصام الدولة» قضى على هذه الثورة فإنه لم يستطع وضع حد لازدياد قوة أخيه «شرف الدولة».

ففي سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) استولى «شرف الدولة» على «الأهواز» وقبض على أخيه «أبى طاهر فيروز شاه» المناصر لصمصام الدولة، وفي (رمضان سنة ٣٧٦هـ = يناير سنة ٩٨٧م) استولى على «العراق» ودخل «بغداد» وقبض على أخيه «صمصام الدولة»، فذهب إليه الخليفة وهنأه بالسلطنة.

لم يستمر «شرف الدولة» طويلاً في إمارته على «العراق»، فقد تُوفِّي في غرة (جمادى الأولى سنة ٣٧٩هـ = أغسطس سنة ٩٨٩م)، ولم يجد حرجاً وهو في مرض موته أن يأمر بِسَمْل عيني أخيه «صمصام الدولة» وهو في سجنه.

وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضياء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبى نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قَلّتْ الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولي على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحُمِل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»؛ حيث أُرغِم على خلع نفسه في (التاسع عشر من شعبان سنة (٣٨١هـ = أكتوبر سنة ٩٩١م) بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عاماً، كان خلالها مسلوب الإرادة.

ثالثاً: خلافة القادر بالله
(٣٨١ ـ ٤٢٢هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣١م)

هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولِّي الخلافة، وكان غائباً عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة»، والناس في (رمضان سنة ٣٨١هـ = نوفمبر سنة ٩٩١م)، وعمره خمسة وأربعون عاماً.

وقد دامت خلافة «القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلت بالكثير من الأحداث والتطورات، وأهمها:

أ ـ ازدياد التفكك في البيت البويهي:

فقد نشب الصراع بين «بهاء الدولة»، وأخيه «صمصام الدولة»، ولم يكن في «بني بويه» أظلم من «بهاء الدولة» ولا أقبح سيرة منه، ففي سنة (٣٨٣هـ = ٩٩٣م)

قام بمحاولة للاستيلاء على المنطقة الخاضعة لإمارة أخيه «صمصام الدولة» في بلاد «فارس» و«أرَّجان»، فانتهت هذه المحاولة بعكس ما كان يهدف إليه؛ حيث تمكن «صمصام الدولة» من الاستيلاء على «خوزستان» الخاضعة لبهاء الدولة، وبدد شمل الجيش الذي أرسله «بهاء الدولة».

وفى سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) استطاع «بهاء الدولة» أن يهزم «صمصام الدولة»، وأن يسترد منه بعض ما خسره قبل ذلك.

وقد تجدد الصراع بينهما مرات عديدة، ووصل في إحدى مراحله إلى استيلاء «صمصام الدولة» على «البصرة» في «العراق» سنة (٣٨٦هـ = ٩٩٦م)، ولم يتوقف هذا الصراع بين «بهاء الدولة» و«صمصام الدولة» إلا بمقتل «صمصام الدولة» على يد بعض أبناء «عز الدولة بختيار»؛ انتقاماً لمقتل أبيهم «بختيار» على يد «عضد الدولة»، والد «صمصام الدولة»، وذلك في (ذي الحجة سنة ٣٨٨هـ = ٩٩٨م).

وعقب مقتل «صمصام الدولة» أراد بعض أبناء «بختيار» الاستيلاء على «فارس»، فنشب الصراع بينهم وبين «بهاء الدولة» وانتهى بهروبهم ومقتل أحدهم واسمه «أبو نصر» على يد أنصار «بهاء الدولة» سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م).

وقد تُوفِّي «بهاء الدولة» (أبو نصر فيروز بن عضد الدولة) في (جمادى الآخرة سنة ٤٠٣هـ = ديسمبر سنة ١٠١٢م)، فخلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو شجاع فخر الملك»، الذي لقبه الخليفة «القادر بالله» «سلطان الدولة»، فولى أخاه «جلال الدولة» «أبا طاهر» إمارة «البصرة» وأخاه «قوام الدولة أبا الفوارس» «كرمان».

ونشب صراع مرير بين أبناء «بهاء الدولة»: «سلطان الدولة» و«جلال الدولة»، و«قوام الدولة»، و«مشرف الدولة» الذي استطاع الاستيلاء على «العراق» سنة (٤١١هـ = ١٠٢٠م) وبعد وفاة «سلطان الدولة» في (شوال سنة ٤١٥هـ = ديسمبر سنة ١٠٢٤م) خلفه ابنه «أبو كاليجار» على إمارة «فارس» و«كرمان»، ودخل في صراع مع عمه «أبى الفوارس بن بهاء الدولة» الذي استطاع الاستيلاء على «كرمان»، وأرغم «أبا كاليجار» على دفع خراج له قيمته عشرون ألف دينار، إلا أن «أبا كاليجار» استرد «كرمان» بدون قتال عقب وفاة عمه «أبى الفوارس» سنة (٤١٩هـ = ١٠٢٨م).

وعقب وفاة «مشرف الدولة» تولى أخوه «أبو طاهر جلال الدولة» - أمير «البصرة» - إمارة «العراق»، لكنه لم يتمكن من دخول «بغداد»؛ حيث منعه أنصار ابن أخيه «أبى كاليجار» من دخولها، تمهيداً لقدوم «أبي كاليجار» وسيطرته على «العراق»، ولكن ذلك لم يحدث لانشغاله بصراعه مع عمه «أبي الفوارس»، وبقيت «بغداد» بدون أمير بويهي لمدة عامين وبضعة أشهر، مما دعا رؤساء الجند إلى أن يطلبوا من الخليفة «القادر بالله» أن يرسل إلى «جلال الدولة» ليحضر إلى «بغداد» ويتسلم الإمارة؛ جمعاً للكلمة وحسماً للخلاف، فاستجاب الخليفة لهم ودخل «جلال الدولة» «بغداد» في (رمضان سنة ٤١٨هـ = سبتمبر سنة ١٠٢٧م)، إلا أنه ما لبث أن دخل في صراع مع ابن أخيه «أبي كاليجار»، الذي أراد انتزاع «العراق» من عمه «جلال الدولة»، واستمر الصراع بينهما بين النصر والهزيمة لهذا الطرف أو ذاك حتى وفاة «جلال الدولة» سنة (٤٣٥هـ = ١٠٤٤م).

وقد أدى الصراع المستمر بين أبناء البيت البويهي إلى تطلع قوى أخرى من خارج البيت البويهي للاستيلاء على مقاليد الحكم في دولة الخلافة العباسية، كما شغل هذا الصراع البويهيين عن توجيه أذاهم إلى الخليفة العباسي «القادر بالله»، الذي ظل واحداً وأربعين عاماً على كرسيِّ الخلافة حتى تُوفِّي سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣١م).

ب - اتساع قوة الدولة الغزنوية:

تُنسب «الدولة الغزنوية» إلى مدينة «غَزْنَة» بأفغانستان الحالية، ويقال: إن اسمها الصحيح «غَزْنين» ثم تحول عند العامة إلى «غَزْنَة»، واشتهرت به.

وتمتد جذور الأسرة الغزنوية إلى مرحلة سابقة على خلافة «القادر بالله»، فقد ارتبطت بداية ظهور الغزنويين بظهور «ألبَتكين» (ويكتب أحياناً: ألب تكين أو ألفتكين)، وهو غلام تركي التحق بخدمة السامانيين، وتدرج في المناصب حتى وصل إلى منصب «حاجب الحجاب»، وهو منصب كان يتيح سلطة خطيرة لصاحبه، ثم تقلد «ألبتكين» ولاية «خراسان» نيابة عن الأمير السامان «عبد الملك بن نوح» سنة (٣٤٩هـ = ٩٦٠م) حتى عزله عنها الأمير «منصور بن نوح» الذي خلف أخاه

«عبد الملك» فلجأ «ألبتكين» إلى «بلخ»، واستطاع هزيمة جيش «منصور» الذي أرسله إليه سنة (٣٥١هـ = ٩٦٢م)، ثم توجه إلى «غزنة» في السنة نفسها، واستولى عليها واتخذها مقراً له في خلافة «المطيع لله».

وبعد وفاة «ألبتكين» خلفه ابنه «أبو إسحاق إبراهيم»، الذي تعاون مع الأمير «منصور بن نوح» ضد أمير «غزنة» السابق «أبي علي»، الذي أطاح به «ألبتكين» سنة (٣٥١هـ = ٩٦٢م)، فسانده الأمير «منصور» على شرط أن يعد نفسه تابعاً للدولة السامانية، فوافق «أبو إسحاق» على ذلك.

وبعد وفاة «أبي إسحاق إبراهيم» سنة (٣٥٥هـ = ٩٦٦م) تولى إمارة «غزنة» «بلكاتكين»، ثم «ببري تكين» على التوالي، وهما من غلمان «ألبتكين»، ثم أصبح «سُبُكْتكين» أميراً على «غزنة» في (شعبان سنة ٣٦٦هـ = مارس ٩٧٧م) فكان ذلك نقطة تحول في تاريخ الغزنويين.

و«سُبُكْتكين» غلام تركي من غلمان «ألبتكين»، كان قد قربه إليه وزوّجه ابنته، وعينه قائداً لحرسه، فلما تولى «غزنة» وسع حدودها في اتجاه بلاد «الهند»، وحقق انتصارات كبيرة في تلك البلاد، وأصبح بذلك المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية.

وقد استعان الأمير «نوح بن منصور السامان» (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ = ٩٧٧ ـ ٩٩٧م) بسُبُكتكين سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) للقضاء على حركة تمرد وعصيان ضده في «بخارى»، وخلع عليه لقب «ناصر الدولة»، وعين ابنه «محموداً» قائداً لجيش «خراسان» ومنحه لقب «سيف الدولة».

واختار «سُبُكتكين» مدينة «بلخ» مقراً له في أواخر أيامه، وقد تُوفِّي في (شعبان سنة ٣٨٧هـ = أغسطس سنة ٩٩٧م)، وعقب وفاته تنازع ابناه «محمود» و«إسماعيل» حول أحقيتهما في وراثة الحكم، وانتهى هذا النزاع بانتصار «محمود» الذي أصبح رئيساً للدولة الغزنوية سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م)، وأحسن معاملة أخيه «إسماعيل» وأعلى منزلته.

وقد حققت إمارة «محمود بن سُبُكتكين» قفزة هائلة في مسار «الدولة الغزنوية»، فترامت أطرافها، واتسع نفوذها، وذاع صيتها، وأصبحت بلا منافس من حيث

هيبتها العسكرية ومكانتها الحضارية، وقد اشتهر «محمود بن سُبُكتكين» بلقب «السلطان»، كما خلع عليه الخليفة «القادر بالله» لقب «يمين الدولة وأمين الملة» سنة (٣٨٩هـ = ٩٩٩م).

نجح «محمود بن سبكتكين» في السنوات الأولى من إمارته في تعزيز وضعه الداخلي والقضاء على معارضيه، ثم صرف اهتمامه إلى الفتوح في بلاد «الهند»، وحقق انتصارات هائلة جعلته واحداً من أعظم الفاتحين في التاريخ الإسلامي؛ ففي سنة (٣٨٩هـ = ٩٩٩م) استولى على «خراسان» وقضى على سلطة السامانيين بها، وفى سنة (٣٩٣هـ = ١٠٠٣م) استولى على «سجستان» التي كان حاكمها «خلف بن أحمد» وهو من أكبر أعدائه.

وتعد فتوحات السلطان «محمود بن سُبُكتكين» في بلاد «الهند»، أعظم إنجاز له في هذا المجال، ففي سنة (٣٩٥هـ = ١٠٠٥م) استطاع فتح مدينة «بهاتية» الهندية بجوار إقليم «الملتان»، وأقام بها حتى أصلح أمرها، واستخلف بها مَنْ يُعلِّم مَنْ أسلم مِن أهلها قواعد الإسلام وفرائضه، وفى سنة (٣٩٦هـ = ١٠٠٦م) استولى على «الملتان» التي كانت تخضع لحكومة إسماعيلية شيعية تعادى السلطان «محمود الغزنوي» وتتحالف ضده مع أعدائه الهنود غير المسلمين.

واستمرت غزوات السلطان «محمود» المظفرة في بلاد «الهند» بصورة شبه منتظمة حتى سنة (٤١٦هـ = ١٠٢٥م) فنجح في الاستيلاء على قلعة «ناردين» الهندية المنيعة، بعد قتال عنيف سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م) ودان له كثير من حكام المناطق المجاورة، وأقبل الهنود في تلك المناطق على اعتناق الإسلام، وأرسل إليهم السلطان من يفقههم في الدين، وفتح سنة (٤٠٩هـ = ١٠١٨م) مدينة «قنوج» الحصينة على نهر «الجانج»، الذي يقدسه الهنود، واعتنق أهلها الإسلام.

وفى سنة (٤١٦هـ = ١٠٢٥م)، قام السلطان «محمود» بآخر غزواته في بلاد «الهند»، وهى غزوة «سُومْنَات» وكان بقلعة «سومنات» الحصينة معبد يضم نفائس الذهب والفضة والجواهر، مما لا يوجد له نظير في أي مكان آخر في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى صنم البراهمة الأعظم الذي يحج إليه الهنود من كل مكان، فاقتحم السلطان «محمود» هذه القلعة، في (ذي القعدة سنة ٤١٦هـ = ديسمبر سنة

١٠٢٥م) بعد أن استبسل الهنود في الدفاع عنها، واستولى على كل ما فيها من نفائس قُدِّرت قيمتها بأكثر من عشرين مليون دينار، وحطّم السلطان «محمود» بنفسه صنم البراهمة الأعظم بسومنات وأرسل منه قطعاً إلى «غزنة»، و«مكة» و«بغداد» إعلاناً بهذا الفتح العظيم، وكان السلطان «محمود» يتصل ـ عادة ـ بالخليفة «القادر بالله» في «بغداد» بعد كل فتح عظيم في البلاد الهندية؛ ليخبره بما فتح الله للمسلمين في هذه البلاد، مجدداً ولاءه له.

وأثناء قيامه بغزواته في شبه القارة الهندية استطاع السلطان «محمود» أن يضم إلى نفوذه إقليم «خوارزم» ويقضي على الأسرة المأمونية المعادية له بها سنة (٤٠٧هـ = ١٠١٦م)، كما ضم إليه أيضاً «الري» و«قزوين» و«أصفهان» سنة (٤٢٠هـ = ١٠٢٩م) بمعاونة ابنه «مسعود»، فاتسعت مملكته في «خراسان» و«ما وراء النهر» و«شبه القارة الهندية».

وبعد غزوة «سومنات» لم يتمكن السلطان «محمود» من مواصلة حملاته الموفقة في «شبه القارة الهندية»، بسبب اهتمامه بمواجهة ثورات «العراق» و«خراسان» وخطر الأتراك السلاجقة.

وقد تُوفِّي السلطان «محمود» بغزنة في شهر (ربيع الآخر سنة ٤٢١هـ = أبريل سنة ١٠٣٠م) وعمره واحد وستون عاماً، وكان قد أوصى بالسلطة لابنه «محمد»، ولكنه لم يكن يتمتع بحب الجند والرعية فتخلَّوا عنه وبايعوا أخاه الأكبر «مسعوداً» واستتب له الأمر في أواخر سنة (٤٢١هـ = ١٠٣٠م)، ووصل إلى «غزنة» من «أصبهان» في (جمادى الآخرة سنة ٤٢٢هـ = مايو سنة١٠٣١ م) وقد ورث مملكة أبيه الشاسعة.

وقد كان السلطان «محمود بن سُبُكتكين» يتحلى بمواهب إدارية متميزة، فقد استطاع بعد فتوحاته في «الهند» أن يتألَّف الهندوس، وأن يجعلهم جزءاً من نسيج دولته، وأن يستخدمهم في جهازه الإداري وأن يجندهم في جيشه، كما كان السلطان «محمود» يتحلى بأخلاق رفيعة، ويكثر الإحسان إلى الرعية والرفق بهم، ويحب العلماء ويكرمهم ويعظمهم وكان على مذهب «أبي حنيفة» في الفقه، وهو المذهب الذي مازال واسع الانتشار في «شبه القارة الهندية» و«أفغانستان» و«أواسط

آسيا»، وكان السلطان «محمود» شغوفاً بعلم الحديث النبوي، فكان الشيوخ يقرءونه بين يديه وهو يسمع.

وقد قصده العلماء والشعراء من كلِّ مكان، وكان أبرزهم المؤرخ العربي «العُتْبى» (أبو النصر محمد بن عبد الجبار) صاحب كتاب «اليميني» الذي جمع فيه سيرة «يمين الدولة السلطان محمود»، و«الريحان البيروني» (محمد بن أحمد) صاحب المعرفة الموسوعية في الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والجغرافيا، ومن أشهر كتبه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، والشاعر الفارسي المعروف «الفردوسي» (أبو القاسم حسن) صاحب «الشاهنامة» أو «كتاب الملوك» وهو ملحمة شعرية تتألف من ستين ألف بيت، وقد أهداها «الفردوسي» إلى السلطان «محمود» الذي كافأه عليها بستين ألف درهم، لكن «الفردوسي» رأى أن هذه المكافأة أقل مما كان يتوقع، فترك بلاط السلطان معترضاً!.

وكان «يمين الدولة السلطان محمود» حريصاً على تقديم كل فروض الولاء لخليفة المسلمين، باعتبار منصب الخلافة رمزاً يجب صيانته والمحافظة على مكانته، فالخلافة قد ارتبطت منذ قيامها بعزة الإسلام ومجده، والتطاول على هذا المنصب العظيم يُعد استخفافاً بكل ما يرمز إليه من قيم ومعانٍ.

وفاة الخليفة القادر بالله، ونبذة عن شخصيته:

تُوفِّي «القادر بالله» في شهر (ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ = نوفمبر سنة ١٠٣١م) وعمره سبع وثمانون سنة، ودامت خلافته واحداً وأربعين عاماً، فكانت أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في هذا المنصب حتى عصره.

كان الخليفة «القادر بالله» يتحلى بصفات جعلته إحدى الشخصيات المتميزة في تاريخ «الخلافة العباسية»، فقد كان راجح العقل وافر الحلم، مؤثراً للخير، ظاهر الكرم، جميل الأخلاق، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، كما كان شغوفاً بالعلم محباً لأهله، مستقيم الطريقة في الدين بعيداً عن البدعة، متواضعاً، عزوفاً عن مظاهر الأبهة والتكلف، فكان يخرج من داره في زيّ العامة، ويزور قبور الصالحين، وكان عادلاً وصولاً ظاهر البر باليتامى والمساكين، قويَّ الشخصية،

يحظى بالاحترام والتبجيل؛ فلم يتعرض لما تعرض له غيره من السابقين له من مهانة خلال فترة اضمحلال الخلافة، ورغم ما تعرضت له الخلافة من ظروف وأحداث وتغلغل نفوذ الترك والفرس فإن «القادر بالله» استغل كل ما أتيح له من إمكانيات، وقدَّم أفضل نموذج يمكن أن نتوقعه لخليفة عباسي في ضوء تلك الظروف.

شهد القرنان (٤و٥هـ = ١٠و١١م) قمة الازدهار الحضاري بمظاهره المختلفة في أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة وفى «دولة الخلافة العباسية» بصفة خاصة؛ ويمثل عصر «القادر بالله» زبدة الحضارة الإسلامية في هذين القرنين، وهكذا كانت الأوضاع الحضارية أحسن حالاً من الأوضاع السياسية خلال تلك الفترة.

رابعاً: خلافة القائم بأمر الله
(٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ = ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م)

ونهاية عصر البويهين:

تولى «القائم بأمر الله» (أبو جعفر عبد الله بن القادر) الخلافة في اليوم الذي تُوفِّي فيه أبوه «القادر بالله» في ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣١م)، وعمره ثلاثون عاماً، وقد لقبه أبوه ـ قبل وفاته ـ بالقائم بأمر الله.

وقد زادت الأوضاع الداخلية في «دولة البويهيين» في عهده تدهوراً وانحطاطاً، وأصبحت الدولة جسماً بلا روح، فقد استمرت أمور «العراق» في فوضى واضطراب؛ بسبب الصراع بين «جلال الدولة» و«أبي كاليجار» على السيطرة عليه، وضعفت مكانة «جلال الدولة»، ورغم الصلح الذي تم بين «جلال الدولة» و«أبي كاليجار» سنة (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م)، وتأكيده بزواج «أبي منصور بن أبي كاليجار» من ابنة «جلال الدولة» فإن «أبا كاليجار» انتهز فرصة وفاة «جلال الدولة» سنة (٤٣٥هـ = ١٠٤٤م) واستولى على زمام السلطة في «العراق» في (صفر سنة ٤٣٦هـ = أغسطس سنة ١٠٤٤م)، بعد إحباطه محاولة الابن الأكبر لجلال الدولة للاستيلاء على الحكم في «بغداد».

وأثناء إمارة «أبي كاليجار» في «بغداد» استطاع الأتراك السلاجقة أن يسيطروا على أجزاء كبيرة من البلاد الخاضعة للبويهيين، واضطر «أبو كاليجار» إلى طلب

الصلح مع السلطان السلجوقى «طغرل بك» وزوَّجه ابنته، كما تزوج «أبو منصور بن أبي كاليجار» من ابنة الملك «داود» أخي «طغرل بك»، وأصبحت «الدولة البويهية» معرضة للسقوط في أية لحظة.

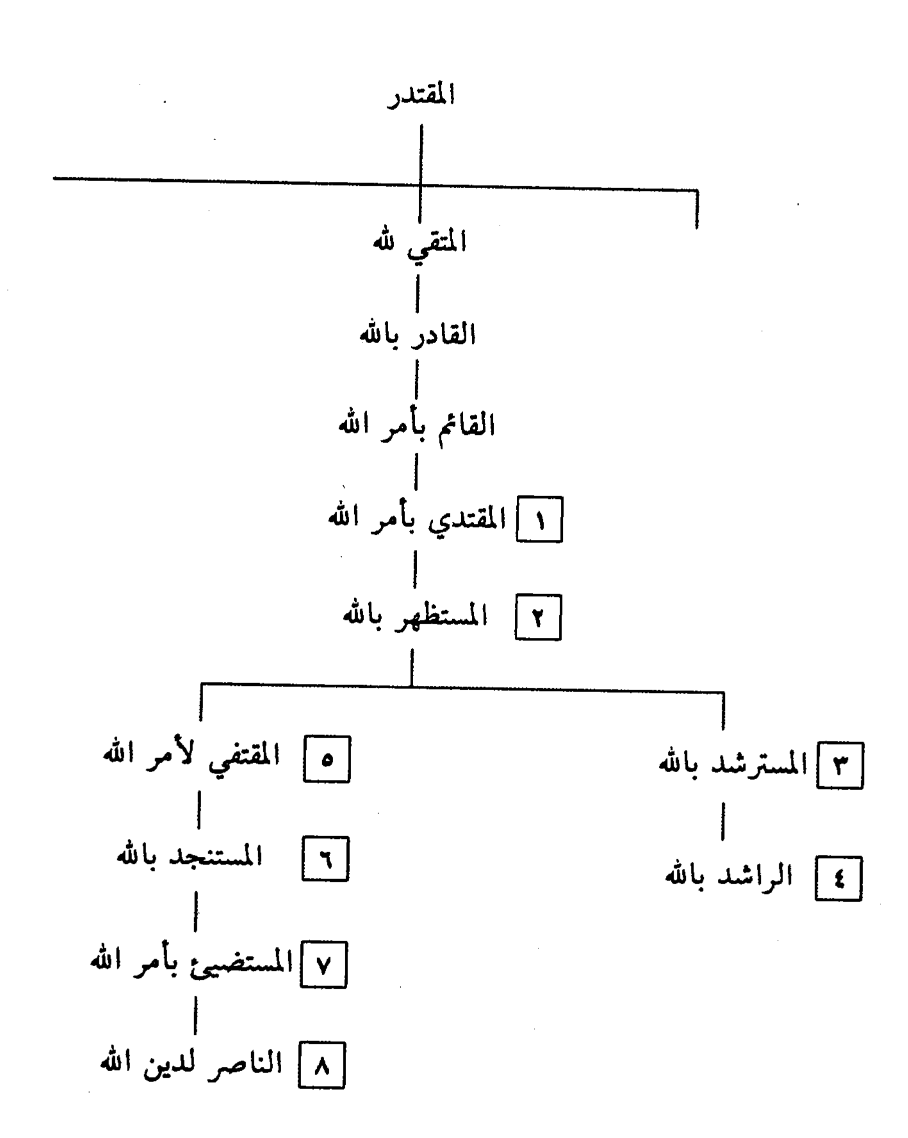
وعقب وفاة «أبي كاليجار» في (جمادى الأولى سنة ٤٤٠هـ = أكتوبر سنة ١٠٤٨م) خلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو نصر خسرو فيروز» الملقب بالملك الرحيم، وكانت فترة إمارته تمثل قمة التردي في أوضاع «الدولة البويهية»؛ حيث دخل في صراع مع إخوته حول السلطة، واستعان بعضهم بالسلاجقة ضد أخيهم «الملك الرحيم»، وأصبح البويهيون تحت سيطرة السلاجقة، وتحدد مصير دولتهم على أيدي هذه القوة الناشئة.

عصر نفوذ السلاجقة

٤٤٧ ــ ٥٩٠هـ

وعدد خلفائه ٨



ثالثاً: عصر نفوذ السلاجقة

(٤٤٧ ـ ٥٩٠هـ = ١٠٥٥ ـ ١١٩٤م)

السلاجقة أسرة تركية كبيرة، كانت تقيم في بلاد «ما وراء النهر»، وتنسب إلى زعيمها «سلجوق بن تُقاق»، الذي اشتهر بكفاءته الحربية، وكثرة أتباعه.

وقد أسلم «سلجوق» وأتباعه، وخلَّف من الأولاد «أرسلان» و«ميكائيل» و«موسى»، وكان أبرزهم «ميكائيل»، الذي أنجب «طغرل بك» (محمد) و«جغرى بك» (داود)، اللذين قام عليهما مجد «السلاجقة».

هاجر السلاجقة بزعامة «طغرل بك» وأخيه «جغرى» في الربع الأول من القرن الخامس الهجري إلى «خراسان» الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع بين «الغزنويين» و«السلاجقة»، استطاع «السلاجقة» السيطرة على «خراسان» بعد هزيمة الغزنويين بقيادة السلطان «مسعود بن محمود بن سُبُكتكين» سنة (٤٣١هـ = ١٠٤٠م) أمام «طغرل بك» وأخيه «جغرى».

وقد ساعد «السلاجقة» على توطيد سلطانهم انتماؤهم إلى المذهب السني، وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسي «القائم بأمر الله»، الذي عيّن «طغرل بك» نائباً عنه في «خراسان» وبلاد «ما وراء النهر» وفي كل ما يتم فتحه من البلاد.

وقد استطاع «السلاجقة» توسيع حدود مملكتهم بسرعة هائلة، فاستولى زعيمهم «طغرل بك» على «جرجان» و«طبرستان» سنة (٤٣٣هـ)، وعلى «خوارزم» و«الري» و«همدان» سنة (٤٣٤هـ = ١٠٤٣م) وعلى «أصبهان» سنة (٤٤٣هـ = ١٠٥١م)، وعلى أذربيجان» سنة (٤٤٦هـ = ١٠٥٤م)، وبدأ يتطلع للسيطرة على «بغداد»، وقد هيأت له الأوضاع السائدة في «العراق» تحقيق هذا الهدف.

دخول طغرل بك بغداد سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) وسقوط دولة البويهيين:

كان القائد التركي المشهور «أبو الحارث أرسلان المظفَّر بن عبد الله» المعروف بالبساسيري، من أكابر العسكريين الأتراك في «بغداد» في أواخر العهد البويهي،

وكان يقوم بدور الحاكم العسكري لمدينة «بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر في دار الخلافة، وقد كانت هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبي القاسم بن المسلمة» (علي بن الحسن بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتهمه الوزير بالخيانة، واتصاله بالفاطميين في «مصر» لميوله الشيعية، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشي أثر موقف «البساسيري» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل بالسلطان السلجوقي «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى «بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات «البساسيري» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شؤون الدولة فاستجاب السلطان السلجوقي وتقدم بجنوده نحو «بغداد»، وأمر الخليفة بأن يُخطَب له على منابرها، قبل دخولها في (٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧هـ = نوفمبر سنة ١٠٥٥م) بثلاثة أيام، وتم القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين.

أصبح «طغرل بك» (ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق» أولَ سلاطين «السلاجقة» في «بغداد»، ابتداءً من (رمضان ٤٤٧هـ = نوفمبر ١٠٥٥م)، وقد استقبله الخليفة «القائم بأمر الله» بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، ولقبه «ملك المشرق والمغرب».

الخلافة في ظل السلاجقة:

رأى «السلاجقة» في الخلافة السُّنية رمزاً دينياً يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حيّ لهذا الرمز، فأحاطوه بهالة من التقدير والإكبار، ونعمت «الخلافة العباسية» في ظل نفوذ «السلاجقة» بأمرين:

الأول: سيادة المذهب السنيّ في أرض الخلافة.

والآخر: إحاطة الخلافة بما هي أهل له من إكرام وإجلال؛ فأصبح من حق الخليفة اتخاذ وزير له، ورغم أن وزير السلطان السلجوقي كان بصفة عامة أوسع نفوذاً وأقوى تأثيراً من وزير الخليفة، فإن ذلك لا يقلل من حقيقة التكريم الذي أسبغه «السلاجقة» على منصب الخلافة؛ حيث كانت السلطة الفعلية في يد «السلاجقة»، وكانت سلطة الخليفة روحية أكثر منها سياسية.

فتنة البساسيري ومحاولة إخضاع العراق للنفوذ الفاطمي:

عندما دخل «طغرل بك» «بغداد» اضطر «البساسيري» إلى تركها، وبدأ يجمع حوله عدداً من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م)، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمي»، ثم مد نفوذه إلى «الكوفة» و«واسط»، وأغرى «إبراهيم ينَّال» - وهو أخو «طغرل» لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن انشغاله عنه بفتنة أخيه.

وقد أمد «المستنصر الفاطمي» «البساسيري» بما يدعم موقفه ويمكنه من مد نفوذه، فاستطاع في (الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ = السابع والعشرين من ديسمبر ١٠٥٨م) أن يدخل «بغداد» بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمي، وخضعت «بغداد» للخلافة الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ووزيره «ابن المسلمة» أن يضعا نفسيهما تحت حماية أحد أعوان «البساسيري»، واسمه «قريش بن بدران»، فطلب «البساسيرى» من «قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله شر قتلة في(أواخر ذي الحجة سنة ٤٥٠هـ = يناير ١٠٥٩م)، وقام «قريش» بتسليم الخليفة العباسي إلى ابن عم له بنواحي «الأنبار» فآواه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة.

وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه ذلك، فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب للفاطميين بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات «البساسيري» وحقيقة مخططاته، فمنع عنه عونه وتأييده؛ مما كان له أثره السيئ على موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي نجح في القضاء على ثورة أخيه «إبراهيم ينَّال»، وقبض عليه وقتله في (التاسع من جمادى الآخرة سنة ٤٥١هـ = يوليو سنة ١٠٥٩م).

وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقى «طغرل بك» من «بغداد» هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في (٦ من ذي القعدة سنة (٤٥١هـ = ١٤ من ديسمبر ١٠٥٩م)، وسيطر «طغرل بك» على «بغداد» بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة «البساسيري» عليها، وأعاد الخليفة «القائم بأمر الله» مكرَّماً إلى دار الخلافة

في (٢٥ من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ = ١٤من ديسمبر سنة ١٠٥٩م) ونجح فرسان «طغرل بك» في قتل «البساسيري» في (٨ من ذي الحجة سنة ٤٥١هـ = ١٥من يناير سنة ١٠٦٠م)، وبذلك بدأ السلطان السلجوقي «طغرل بك» يعمل على توطيد ملك «السلاجقة» بالعراق.

بين طغرل بك والخليفة القائم بأمر الله:

كان «طغرل بك» حريصاً على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكلِّ ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم.

يروي المؤرخون أن «طغرل بك» كان غائباً عن «بغداد»، فلما عاد إليها سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) توجه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الخليفة قَبَّل الأرض وجلس على سرير دون سرير الخليفة، فأمره الخليفة أن يتقي الله فيما ولاه، وأن يجتهد في عمارة البلاد وإصلاح العباد ونشر العدل ومنع الظلم، فقام «طغرل بك» وقبَّل الأرض وقال: «أنا خادم أمير المؤمنين وعبده، ومتصرف على أمره ونهيه، ومتشرف بما أهلني له واستخدمني فيه، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق».

وعندما توجه «طغرل بك» لاستخلاص «العراق» من «البساسيري» كان شديد الحرص على سلامة الخليفة.

وقد أراد «طغرل بك» أن يمنح نفسه وأسرته شرفاً فريداً متميزاً، وأن يضفي على سلطانه السياسي صبغة روحية، فخطب ابنة الخليفة «القائم بأمر الله» سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م)، فانزعج الخليفة لذلك رغم زواجه من «أرسلتن خاتون» (واسمها خديجة) ابنة الأمير «داود» أخي السلطان «طغرل بك» سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م)، فلم يحدث أن تزوج أحد من خارج البيت العباسي منه، وحاول الخليفة «القائم» رفض هذا الزواج، ودافع بكل ما يمكنه في سبيل ذلك، ولكنه اضطر إلى الخضوع لضغوط وزير «طغرل بك» «عميد الملك الكُنْدُري»؛ فتم العقد لطغرل على ابنة الخليفة سنة (٤٥٤هـ = ١٠٦٢م) ودخل بها سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م).

الوزير عميد الملك الكندري ومكانته في دولة طغرل بك:

أثناء حكم «طغرل بك» في «نيسابور» طلب رجلاً متمكناً من اللغة العربية يكتب له، فدلوه على «عميد الملك الكندري» (أبي نصر محمد بن منصور بن محمد) فلما دخل «طغرل» «بغداد» سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) عينه وزيراً له، فكان ساعده الأيمن حتى وفاة «طغرل» سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م).

ويعتبر «عميد الملك» أحد العوامل المهمة في ازدهار دولة «طغرل بك» بفضل ما كان يتمتع به من حنكة وكفاءة، كما كان سبباً مكَّن «طغرل بك» من السيطرة على «العراق» ودار الخلافة، وإدخال الخليفة «القائم» ووزرائه وحاشيته في طاعة «السلاجقة» دون إراقة دماء، لما تمتع به «عميد الملك» من نفاذ بصيرته في الأمور، وبُعد نظره، وحسن سياسته، إلى جانب رسوخ قدمه في العلم والأدب.

واقترن اسم الوزير عميد الملك باسم «طغرل بك» وأصبح لا يُذكر أحدهما دون أن يُذكر الآخر.

وفاة طغرل بك وتولي ألب ارسلان:

كان «طغرل بك» من كبار الشخصيات في التاريخ، اتصف بالشجاعة والإقدام، والعقل والحلم، وكان من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، كريماً، محافظاً على الصلوات الخمس، ويصوم يومي الاثنين والخميس.

ورغم أن بعض المؤرخين وصفه بالظلم والقسوة، فإن ذلك لا يتفق مع صفاته السابقة التي سجلها له معظم المؤرخين.

وقد أوصى «طغرل بك» بأن يخلفه بعد موته ابن أخيه «سليمان بن داود جغرى»؛ حيث إنه لم يخلف ولداً، وفى (٨ من رمضان سنة ٤٥٥هـ = سبتمبر سنة ١٠٦٣م) توفى «طغرل بك» بمدينة «الري» ببلاد «الجبل»، وعمره نحو سبعين عاماً، وقد نفذ «عميد الملك الكندري» وصية «طغرل بك»، ولكن الناس كانوا أميل إلى «ألب أرسلان»، فأمر «عميد الملك» بالخطبة له، وتم الأمر له بمساعدة وزيره «نظام الملك»، وأصبح سلطانَ «السلاجقة».

قتل عميد الملك الكندري ووزارة نظام الملك:

عقب تولِّي «ألب أرسلان» سلطنة «السلاجقة»، أقر «عميد الملك الكندري» وزير عمه «طغرل» في منصبه، ولكنه سرعان ما تغير عليه فعزله في شهر (المحرم سنة ٤٥٦هـ = ديسمبر سنة ١٠٦٣م)، وسجنه، ثم دبّر قتله في شهر(ذي الحجة سنة ٤٥٦هـ = نوفمبر سنة ١٠٦٤م)، ويبدو أن «نظام الملك» لعب دوراً في ذلك.

وبعد عزل «عميد الملك»، عين «ألب أرسلان» «نظام الملك» وزيراً له، وكان وزيره أثناء إمارته على «خراسان» قبل توليه السلطنة، ويُعدُّ «نظام الملك» أشهر وزراء«السلاجقة»كما يعد من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامي.

وكانت بداية معرفة «نظام الملك» بالسلاجقة حينما اتصل «بداود بن ميكائيل بن سلجوق»، والد السلطان «ألب أرسلان»، وأعجب بكفاءته وإخلاصه فسلمه إلى ابنه «ألب أرسلان» وقال له: «اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به».

وقد ظلَّ «نظام الملك» وزيراً للسلطان «ألب أرسلان»، ثم لخليفته «ملكشاه» ما يقرب من ثلاثين عاماً.

ولم يكن «نظام الملك» مجرد وزير لامع، بل كان راعياً للعلم والأدب محباً لهما، وقد سمع الحديث وقرأه، وكان مجلسه عامراً بالعلماء والفقهاء والصوفية، مثل إمام الحرمين «أبي المعالي الجوينى» و«أبي القاسم القشيري»، كما اهتم «نظام الملك» ببناء المدارس ووضع أسس قيام نهضة تعليمية رائعة.

اتساع مملكة السلاجقة خلال حكم الب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ = ١٠٦٣ ـ ١٠٧٣م):

استطاع «ألب أرسلان» أن يوسع حدود مملكة «السلاجقة» التي ورثها عن عمه «طغرل»، وأن يسجل انتصارات رائعة ضد أعدائه في الداخل والخارج، فنجح في القضاء على حركات العصيان في «خراسان» و«ما وراء النهر» و«أذربيجان»، وتمكن من تعزيز الوجود الإسلامي في «أرمينيا»، واستولى على «حلب» وقضى على النفوذ الفاطمي بها.

معركة ملاذكرد:

عزم الإمبراطور البيزنطي «رومانوس الرابع» على طرد «السلاجقة» من «أرمينيا» وضمها إلى النفوذ البيزنطي، فأعد جيشاً كبيراً سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) يتكون من مائتي ألف مقاتل، وتولَّى قيادته بنفسه، وزحف به إلى «أرمينيا»، وعندما علم السلطان «ألب أرسلان» بذلك، وهو بـ«أذربيجان» لم يستطع أن يجمع من المقاتلين إلا خمسة عشر ألف فارس، فتقدم بهم إلى لقاء الإمبراطور البيزنطي وجحافله، والتقت مقدمة جيش السلطان بمقدمة جيش «رومانوس» في «أرمينيا» فهزمتها.

وقد أراد السلطان «ألب أرسلان» استغلال هذا النصر المبدئي فأرسل إلى الإمبراطور «رومانوس» يعرض عليه الصلح، إدراكاً منه لحرج موقفه بسبب قلة جنده، فرفض «رومانوس» الصلح وهدد السلطان بالهزيمة والاستيلاء على ملكه، وقد ألهب هذا التهديد حماس السلطان وجيشه، وعزموا على إحراز النصر أو الشهادة، ووقف فقيه السلطان وإمامه «أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري» يقول للسلطان: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله ـ تعالى ـ قد كتب باسمك هذا الفتح، فالْقَهُم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة».

فلما جاءت هذه الساعة صلى بهم، وبكى السطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنَّط وقال: إن قُتِلْتُ فهذا كفني!.

والتقى جيش السلطان وجيش الإمبراطور في مدينة «ملاذكرد» بأرمينيا، وحمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وامتلأت الأرض بجثثهم، وتمكن المسلمون من أسر إمبراطور الروم «رومانوس»، فأحسن السلطان «ألب أرسلان» معاملته، وأعفاه من القتل مقابل فدية مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعقد معه صلحاً مدته خمسون عاماً، وأطلق سراحه وأرسل معه جنداً أوصلوه إلى بلاده ومعهم راية مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد أنهت معركة «ملاذكرد» النفوذ البيزنطي في «أرمينيا» بصورة مطلقة، وفتحت المجال لامتداد النفوذ الإسلامي السلجوقي إلى «آسيا الصغرى»، وتهديده العاصمة البيزنطية وما وراءها في «أوربا».

وقد حدثت هذه المعركة المظفرة ـ معركة «ملاذكرد» ـ في شهر (ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ = أغسطس ١٠٧١م).

ولا يستطيع الباحثون عن جذور الحروب الصليبية التي حدثت فيما بعد أن يتجاهلوا دور هذه المعركة (ملاذكرد) في تهيئة الظروف التي أدت إلى هذه الحروب.

مقتل ألب أرسلان وانتقال السلطة إلى ابنه ملكشاه:

في أوائل عام (٤٦٥هـ = ١٠٧٣م) توجه «ألب أرسلان» إلى بلاد «ما وراء النهر» لتأديب أمير «بخارى» الثائر «شمس الملك نصر»، وبينما هو في طريقه جاءوا إليه بأمير إحدى القلاع، واسمه «يوسف الخوارزمي» مقيداً بسبب عصيانه، وأغلظ «يوسف» القول للسلطان، فطلب «ألب أرسلان» فك قيوده ليقتله بنفسه، ولكن «يوسف» كان أسرع من السلطان فطعنه بخنجر كان معه، فمات السلطان «ألب أرسلان» بعد أيام متأثراً بجراحه في (١٠ من ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ = أواخر نوفمبر سنة ١٠٧٢م)، وعمره أربعون أو خمس وأربعون سنة.

وقد كان «ألب أرسلان» ـ بإجماع المؤرخين ـ من عظماء سلاطين «السلاجقة»، وكان قائداً عسكرياً من الطراز الأول، وسياسياً محنكاً وحاكماً عادلاً، فلم يتجاوز في جمع الأموال من الرعية، وكان كثير الصدقات خاصة في رمضان، باراً بأهله وأصحابه ومماليكه، شهماً ذا مروءة، ولم يكن يسمح للدسائس أن تعرف طريقها إليه، فقد حاول أحد الوشاة مرة أن يُفسد ما بينه وبين وزيره «نظام الملك»، فكتب له كتاباً يبين له فيه ما يرتكبه الوزير من مخالفات، وتركه له على مُصلاه فعندما أخذه «ألب أرسلان» وقرأ ما فيه، سلَّمه إلى «نظام الملك» وقال له: خذ هذا الكتاب، فإن صدقوا في الذي كتبوه، فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم واشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس.

وعقب وفاة «ألب أرسلان» تولى السلطنة ابنه «ملكشاه» بعهد من أبيه، وتولى «نظام الملك» أخذ البيعة له، وأقره الخليفة «القائم بأمر الله» على السلطنة.

استمرار نظام الملك في الوزارة واتساع نفوذه في عهد ملكشاه:

لم يكتفِ «ملكشاه» بإقرار «نظام الملك» في الوزارة كما كان في عهد أبيه، بل زاد على ذلك بأن فوض إليه تدبير المملكة، وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»، ولقبه ألقاباً كثيرة، أشهرها لقب «أتابك»، ومعناه الأمير الوالد، وكان «نظام الملك» أول مَن أُطلق عليه هذا اللقب.

وسبب هذه المكانة الرفيعة التي حظي بها «نظام الملك» عند السلطان «ملكشاه»، أنه هو الذي مهد له الأمور، وقمع المعارضين، فرآه السلطان أهلاً لهذه المكانة.

وفاة الخليفة القائم بأمر الله، وبيعة المقتدي بأمر الله:

تُوفِّي الخليفة «القائم بأمر الله» في (١٣ من شعبان سنة ٤٦٧هـ = ٣ من أبريل سنة ١٠٧٥م) في أوائل سلطنة «ملكشاه»، وعمره يزيد على ستةٍ وسبعين عاماً، وقد استمر في الخلافة نحو خمسٍ وأربعين سنة.

وقد شهدت خلافة «القائم بأمر الله» تدهور «دولة البويهيين» واندثارها، وقيام «دولة السلاجقة» ثم ازدهارها.

وقد أجمع المؤرخون على أن «القائم بأمر الله» كان يتحلىَ بالأخلاق الحميدة، فقد كان ورعاً زاهداً عالماً، قويَّ اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، مؤثراً للعدل والإنصاف، قاضياً لحوائج الناس.

وقد كان للقائم بأمر الله ابن وحيد، تُوفِّي في حياته، هو «أبو العباس محمد» الملقب بـ«الذخيرة» وقد ولد لـ«الذخيرة» بعد وفاته بستة أشهر غلام، اشتد به فرح جده «القائم» وسماه «عبد الله».

وعندما تُوفِّي «القائم» كان «عبد الله» هذا في العشرين من عمره فتولى الخلافة بعد جده في (١٣ من شعبان سنة ٤٦٧هـ = ٣ من أبريل ١٠٧٥م)، ولقب بـ«المقتدي بأمر الله».

الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي:

كان «المقتدي بأمر الله»، أول خليفة يتقلد منصبه في ظل «دولة السلاجقة»، وبذلك يكون الخلفاء الذين تولوا الخلافة في العهد السلجوقى ـ بعد «القائم بأمر الله» ـ ثمانية هم:

١ ـ المقتدي بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله) (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ = ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م).

٢ ـ المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله) (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ = ١٠٩٤ ـ ١١١٨م).

٣ ـ المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر) (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ = ١١١٨ ـ ١١٣٥م).

٤ ـ الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد) (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ = ١١٣٥ ـ ١١٣٦م).

٥ ـ المقتفي لأمر الله (أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله) (٥٣٢ ـ ٥٥٥هـ = ١١٣٨ ـ ١١٦٠م).

٦ ـ المستنجد بالله (أبو المظفر يوسف بن المقتفي) (٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ = ١١٦٠ ـ ١١٧٠م).

٧ ـ المستضيء بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله) (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ = ١١٧٠ ـ ١١٧٩م).

٨ ـ الناصر لدين الله (أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله) (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ = ١١٧٩ ـ ١٢٢٥م).

وقد شهدت خلافة «الناصر لدين الله» زوال ملك «السلاجقة» في سنة (٥٩٠هـ = ١١٩٤م) وبداية استقلال الخلفاء العباسيين بالسلطة في «بغداد» وما يحيط بها.

ذروة المجد السلجوقي:

بلغت «الدولة السلجوقية» ذروة مجدها، وعظمتها على يد «ملكشاه» الذي استمر في السلطنة عشرين عاماً تقريباً؛ حيث استطاع أن يستثمر ما حققه «طغرل بك» و«ألب أرسلان» على أحسن وجه، فحقق إنجازات عظيمة بمعاونة وزيره «نظام الملك».

وقد تزامنت سلطنة «ملكشاه» - في معظمها - مع خلافة «المقتدي بأمر الله»، الذي تولى منصبه بعد ابتداء حكم «ملكشاه» بعامين، وتُوفِّي بعد وفاته بعامين.

وقد اتسعت حدود «الدولة السلجوقية» في عهد «ملكشاه» اتساعاً غير مسبوق، من حدود «الصين» إلى آخر «الشام»، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد «اليمن»، وحمل إليه ملوك الروم الجزية.

وترجع عظمة «الدولة السلجوقية» في عهد «ملكشاه» إلى اتساع حدودها وازدهار الحركة الثقافية فيها بصورة جديرة بالإعجاب.

وكان لنظام الملك أثر متميز، وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإداري والعسكري، والثقافي.

فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التي نسبت إليه في أنحاء الدولة، فسميت بالمدارس النظامية، وكان أشهرها: «نظامية بغداد» التي تخيَّر «نظام الملك» مشاهير الفكر والثقافة في العالم الإسلامي للتدريس فيها مثل: «حجة الإسلام أبي حامد الغزالي» صاحب كتاب «إحياء علوم الدين»، الذي فوض إليه «نظام الملك» مهمة التدريس في «المدرسة النظامية» بـ«بغداد»، ثم في «المدرسة النظامية» بـ«نيسابور»، التي كان إمام الحرمين «أبو المعالي الجويني» يقوم بالتدريس فيها.

وقد أسهمت هذه المدارس النظامية في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت.

وقد كان «نظام الملك» مؤلفاً مرموقاً أيضاً، فهو مؤلف كتاب «سياسة نامه» الذي تحدث فيه عن كيفية تدبير شؤون الملك، وفضح معتقدات الحشاشين وغيرهم من الخارجين عن الدين.

مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه:

قُتل «نظام الملك» في (١٠ من رمضان سنة ٤٨٥هـ = ١٤من أكتوبر سنة ١٠٩٢م)، حين تقدم إليه أحد غلمان «الباطنية» (أو الحشاشين) وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو مستغيث، فلما اقترب منه أخرج سكيناً كان يخفيها في طيات ملابسه فطعنه بها طعنات قاتلة.

وقد اختلف المؤرخون في بيان السبب الذي أدى إلى مقتل «نظام الملك»، فقيل إن نفوذ «نظام الملك» وأولاده، وشيعته تفاقم بصورة مثلت خطراً على السلطان «ملكشاه» فدبر قتله، وقيل إن السبب في ذلك حربه الدائمة ضد المذاهب الهدامة وعلى رأسها مذهب «الباطنية» أو «الحشاشين».

وعقب مقتل «نظام الملك» عيَّن «ملكشاه» «تاج الملك أبا الغنائم الشيرازي» وزيراً، وكان صاحب خزانة السلطان ومعروفاً بحقده على «نظام الملك».

وقد تُوفِّي «ملكشاه» بعد وفاة «نظام الملك» بخمسة وثلاثين يوماً في (١٥ من شوال سنة ٤٨٥هـ = ١٨ من نوفمبر سنة ١٠٩٢م)، فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقاً وعظمة.

فقد كان السلطان «ملكشاه» أعظم سلاطين «السلاجقة» وأحسنهم سيرة، وأعدلهم حكماً، منصوراً في حروبه، جواداً يحب الإنفاق في وجوه الخير، لا يبخل بمال على ما ينفع العلم والدين، ومما يُروى في ذلك أن أحد كبار حاشيته - وهو «تاج الملك» - أراد أن يفسد العلاقة بينه وبين «نظام الملك»، فذكر له أن الوزير ينفق في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جهز بهذا المبلغ جيشاً لبلغ باب «القسطنطينية»! فطلب السلطان «ملكشاه» حضور «نظام الملك» وسأله عن حقيقة الأمر فقال له: قد أعطاك الله - تعالى - وأعطاني بك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حَمَلَةِ دينه وحَفَظَةِ كتابه ثلاثمائة ألف دينار؟! ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب بسيفه إلا ما قرب منه، وأنا أُجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامه إلى

العرش لا يحجبها شيء عن الله تعالى!! فبكى السلطان وقال: «يا أبت استكثر من الجيش، والأموالُ مبذولة لك، والدنيا بين يديك».

تدهور أوضاع السلاجقة بعد وفاة ملكشاه:

بدأت مظاهر الضعف تنتشر في جسم «الدولة السلجوقية» عقب وفاة «ملكشاه»، فظهر الانقسام والتمزق والفتن، باستثناء فترة حكم السلطان «معز الدين سنجر أحمد»؛ حيث شهدت الدولة قوة وصحوة مؤقتة.

ويوجد عدد من النقاط الأساسية التي لا يمكن إغفالها عند تناول تاريخ الفترة التي شهدت تدهور أوضاع «السلاجقة»، وهي:

أولاً: فروع السلاجقة:

يتفرع «السلاجقة» إلى خمسة فروع رئيسية هي:

(أ) السلاجقة العظام:

وهم ستة: «طغرل بك»، و«ألب أرسلان»، و«ملكشاه»، و«ركن الدين أبو المظفر بَرْكيَارُق» (٤٨٥ ـ ٤٩٨هـ = ١٠٩٢ ـ ١١٠٥م) و«غياث الدين أبو شجاع محمد» (٤٩٨ ـ ٥١١هـ = ١١٠٥ ـ ١١١٧م)، و«معز الدين سنجر أحمد» (٥١١ ـ ٥٥٢هـ = ١١١٧ ـ ١١٥٧م).

ورغم أن مصطلح «السلاجقة العظام» يطلق على هؤلاء الستة، إلا أن الجديرين حقاً بهذا الوصف هم الثلاثة الأوَل، أما الآخرون فقد خاضوا كثيراً من الحروب ضد أبناء بيتهم وعانت الدولة في عهدهم من عوامل الفرقة والتمزق.

(ب) سلاجقة العراق:

ويطلق هذا المصطلح على أمراء «السلاجقة» الذين سيطروا على «العراق» و«الري» و«همدان» و«كردستان»، وكان امتداد نفوذهم في هذه المناطق على حساب «السلاجقة العظام»، واستمر نفوذهم من سنة (٥١١هـ = ١١١٧م) إلى سنة (٥٩٠هـ = ١١٩٤م)، حين تمكن «الخوارزميون» من القضاء على «طغرل الثالث» آخر سلاطينهم.

(ج) سلاجقة كرمان:

وقد بدأ نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس، وفي بعض مناطق الوسط سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤٢م)، قبل دخول «طغرل بك» «بغداد»، واستمر حتى سنة (٥٨٣هـ = ١١٨٧م)، حين قضى التركمان على سلطتهم هناك.

(د) سلاجقة الشام:

وكان نفوذهم في المناطق التي استولى عليها «السلاجقة» من «الفاطميين» أو «الروم» في «الجزيرة» و«الشام»، وقد بدأ نفوذهم في هذه المناطق سنة (٤٨٧هـ = ١٠٩٤م) وانتهى سنة (٥١١هـ =١١١٧م) على يد أتابكة «الشام» و«الجزيرة».

(هـ) سلاجقة الروم:

وكان نفوذهم في الأراضي التي استطاع «السلاجقة» الاستيلاء عليها من «الروم» في «آسيا الصغرى»، وكانت إمارتهم أطول إمارات «السلاجقة» عمراً؛ حيث بدأت سنة (٤٧٠هـ = ١٠٧٧م) واستمرت حتى سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠١م) حين استطاع الأتراك العثمانيون القضاء عليها.

ثانياً: الحروب الصليبية والسلاجقة:

كان اتساع نفوذ «السلاجقة» وتهديده للإمبراطورية البيزنطية و«أوربا»، خاصة بعد معركة «ملاذكرد»، سبباً في قيام الحروب الصليبية.

فقد عقد البابا «إربان الثاني» مجمع «كليرمونت» في (١٨ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م = ٢٨ ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ)، وألقى فيه خطاباً طالب فيه المسيحيين في «أوربا» بالقيام بحرب دينية (صليبية) تهدف إلى مساعدة إخوانهم المسيحيين في الشرق، وتخليص الأماكن المسيحية من قبضة المسلمين، وطرد «السلاجقة» من «آسيا الصغرى».

وكان من الطبيعي أن يقوم «السلاجقة» بالتصدي لتلك الحروب، وحماية العالم الإسلامي من أخطارها، ولكن ذلك لم يحدث: بسبب تمزق دولتهم بعد وفاة «ملكشاه»، واشتعال الصراع فيما بينهم للسيطرة على «الشام»؛ مما أدى إلى

اضطراب الأمور وإتاحة الفرصة لنجاح الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ ـ ١٠٩٩م = ٤٨٩ ـ ٤٩١هـ).

فقد اكتسح الصليبيون قوات «سلاجقة» الروم في «آسيا الصغرى» بقيادة الحاكم السلجوقي «قلج أرسلان»، ثم تقدموا في اتجاه مدينة «الرهابين»: «الموصل» و«الشام»، فاستولوا عليها وتوجَّهوا إلى «أنطاكية» فحاصروها حتى استسلمت وفر أميرها السلجوقي «باغي سيان»، وساروا بعد ذلك إلى «معرة النعمان» التي ينتسب إليها الشاعر المشهور «أبو العلاء المعري»، فحاصروها حتى استسلم أهلها فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف، ثم جاء غزو الصليبيين الأكبر بالاستيلاء على «بيت المقدس» في (رمضان سنة ٤٩٢هـ = يوليو سنة١٠٩٩م) بعد محاصرته عدة أسابيع، وارتكب فيه الصليبيون مذبحةً تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلوا ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبَّادهم وزهَّادهم، الذين كانوا يتعبدون بجوار «بيت المقدس».

وقد وقف «السلاجقة» عاجزين أمام طوفان الصليبيين، فقد كانت أوضاع دولتهم تنتقل من سيئ إلى أسوأ، وكانت الخلافة العباسية جسماً بلا روح، ولم يكن وضع «الفاطميين» في «مصر» يتيح لهم مواجهة الصليبيين.

وظل الأمر كذلك حتى ولى السلطان «محمود بن محمد بن ملكشاه» «عماد الدين زنكي» إمارة «الموصل» والبلاد التابعة لها، فكان ذلك فاتحة خير للمسلمين؛ حيث استطاع «عماد الدين زنكي» مد نفوذه إلى «الجزيرة» و«الشام»، فاستولى على «حلب» سنة (٥٢٢هـ = ١١٢٨م)، وعلى «حماة» سنة (٥٢٣هـ = ١١٢٩م)، ونذر نفسه للجهاد المقدس ضد الصليبيين، وكان أعظم إنجاز حققه «زنكي» في هذا المجال استرداده مدينة «الرها» من الصليبيين في (جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ = ديسمبر سنة ١١٤٤م).

وقد أعد «عماد الدين زنكي» أبناءه الثلاثة «نور الدين محمود»، و«سيف الدين غازي»، «وقطب الدين مودود» لمواصلة الجهاد المقدس ضد الصليبيين.

فاستطاع «نور الدين محمود» الذي خلف أباه على حكم «سوريا» سنة (٥٤١هـ = ١١٤٦م) أن يؤمن فتوحات والده في «الرها»، وأن ينزل هزيمة ساحقة بحاكم

«الوها» الصليبي «جوسلين»، وتمكن من أسره سنة (٥٤٦هـ = ١١٥١م) كما حقق فتوحات عظيمة في إمارة «أنطاكية» وقتل أميرها «ريموند» في (ربيع الأول سنة٥٤٤هـ = يوليو سنة ١١٤٩م).

ويرجع إلى «نور الدين محمود» الفضل في استمرار حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ووصولها إلى ذروتها على يد السلطان «صلاح الدين الأيوبي» الذي تربى في خدمة «نور الدين محمود»، وتشرَّب على يديه حب الجهاد دفاعاً عن الإسلام، واستطاع أن يفتح «مصر» في حياة «نور الدين» لتنضم إلى «الشام» وتتم عملية تطويق الصليبيين.

وعقب وفاة «نور الدين محمود» في (شوال سنة ٥٦٩هـ = إبريل سنة١١٧٤م) أصبح «صلاح الدين الأيوبي» سلطان «مصر» و«الشام»، واستطاع أن يحققِ أروع انتصار في تاريخ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في معركة «حِطِّين» سنة (٥٨٣هـ = ١١٨٧م)؛ حيث استرد المسلمون «بيت المقدس».

ثالثاً: الباطنية والسلاجقة:

«الباطنية» فرقة تجعل الباطن أساساً لفهم أمور الدين ولا تعتمد على الظاهر، وتلجأ إلى تأويل النصوص، وتضم هذه الفرقة «القرامطة»، و«الخُرَّمية»، و«الإسماعيلية»، و«الحشاشين».

وقد ظهرت «حركة الباطنية» في العصر السلجوقي بصورة أقلقت سلاطين «السلاجقة»، واستنفذت الكثير من جهودهم، فقد استطاع زعيمهم «الحسن بن الصباح» الاستيلاء على عدة قلاع حصينة في «فارس»، أشهرها قلعة «أَلَموت» بنواحي «قزوين»، التي ظلت معقل «الحركة الباطنية» لما يقرب من قرنين من الزمان.

وقد حاول «نظام الملك» أن يضع حداً لنفوذ «الباطنية» وأمر بمطاردتهم في كل مكان، وأرسل جيشاً للاستيلاء على «ألموت» ولكنه قُتل في (رمضان سنة ٤٨٥هـ = أكتوبر سنة ١٠٩٢م)، ورجح المؤرخون قيام «الباطنية» بقتله.

وقد قام «السلاجقة» بمحاولات متتالية لتصفية قواعد «الباطنية» ومحاصرة نشاطهم، نجح بعضها، وواجه بعضها الفشل.

وكان السلطان «ملكشاه» أول سلاطين «السلاجقة» الذين حاولوا مواجهة خطر «الباطنية»، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة «أرسلان طاسن»، ولكنه هُزم هزيمة منكرة.

وتعتبر الجهود التي قام بها السلطان «غياث الدين محمد بن ملكشاه» ضد «الباطنية» أخطر ما واجهته هذه الحركة في عهد «السلاجقة»، ففي سنة (٥٠٠هـ = ١١٠٧م) توجه السلطان «محمود» بنفسه إلى «أصبهان» لحرب «الباطنية» الذين كانوا يعتصمون بقلعة «شاهْدَز» المنيعة بزعامة «أحمد بن عبد الملك بن عطاش»، وقد نجح السلطان «محمد» في الاستيلاء على هذه القلعة وقتل زعيمها «ابن عطاش» وكثيراً من «الباطنية» في (ذي القعدة سنة ٥٠٠هـ = يونيو سنة ١١٠٧ م).

وفى عهد السلطان «معز الدين سنجر» (٥١١ ـ ٥٥٢هـ = ١١١٧ ـ ١١٥٧م) قتل «الباطنية» وزيره «معين الملك أبا نصر أحمد بن الفضل» سنة (٥٢١هـ = ١١٢٧م)، وأدرك السلطان مدى خطورتهم، فاتبع معهم سياسة المهادنة.

ورغم وفاة زعيم «الباطنية» «الحسن بن الصباح» سنة (٥١٨هـ = ١١٢٤م) فإن «السلاجقة» لم يستطيعوا استرداد قلعة «ألموت» منهم، فظلَّت تحت سيطرتهم حتى استولى عليها «المغول» سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م)، ولم ينحصر نشاط «الإسماعيلية الباطنية» في عهد «السلاجقة» في بلاد «فارس»، بل امتد إلى «الشام»، وكانت له آثاره المدمرة، واتسع نشاطهم في «حلب» في عهد أميرها السلجوقى «رضوان بن تُتُش بن ألب أرسلان» (٤٨٨ ـ ٥٠٧هـ = ١٠٩٥ ـ ١١١٣م)، وحينما تصدى لهم أمير دمشق» «تاج الملوك بوري بن طغتكين» سنة (٥٢٣هـ = ١١٢٩م)، وقتل منهم آلافاً تربصوا به وهاجموه سنة (٥٢٥هـ = ١١٣١م)، وجرحوه جراحات خطيرة، تُوفِّي متأثراً بها في العام التالي.

وكان من أخطر محاولات «الباطنية» لاغتيال خصومهم محاولتهم اغتيال السلطان «صلاح الدين الأيوبي» أكثر من مرة فاشلة.

وقد أثرت المتاعب التي أثارها «الباطنية» في وجه «السلاجقة» في قدرتهم على القيام بدور أكثر إيجابية في التعامل مع الصليبيين.

وقد ارتبط اسم «الحشاشين» بـ«الباطنية الإسماعيلية» في الفترة التي أعقبت استيلاءهم على قلعة «ألموت» سنة (٤٨٣هـ = ١٠٩٠م) في أواخر عهد السلطان «ملكشاه»، وحتى سقوط معاقلهم في «فارس» و«الشام» على يد المغول، وسبب ذلك أنهم كانوا يطلبون من الذين يتم تكليفهم بالقيام بعمليات الاغتيال تعاطي مادة الحشيش المخدرة حتى يصبحوا أدوات طيعة في أيدي من يستخدمونهم لتنفيذ هذه العمليات.

رابعاً: سقوط الخلافة الفاطمية ودخول مصر تحت لواء الخلافة العباسية (٥٦٧هـ = ١١٧١م):

ظلت «مصر» خاضعة للفاطميين أكثر من قرنين تعاقب خلالها على كرسي الخلافة الفاطمية بمصر أحد عشر خليفة، ابتداءً بالمعز لدين الله وانتهاءً بالعاضد لدين الله، الذي عادت «مصر» في عهده إلى الخلافة العباسية في (المحرم سنة ٥٦٧هـ = سبتمبر ١١٧١م)، فبعد وفاة الخليفة الفاطمي «الفائز بنصر الله» في رجب سنة (٥٥٥هـ)، تولى «العاضد بالله»، آخر خلفاء الفاطميين، عرش «مصر»، وكان صبياً لم يبلغ الحلُم، فأشرف وزيره «طلائع بن رُزِّيك» الأرمن على تدبير شؤون البلاد، حتى قتل في (رجب سنة ٥٥٦هـ = يونيو سنة١١٦١م) بتدبير من حاشية «العاضد» ـ فتولى الوزارة بعده ابنه «رُزِّيك بن طلائع»، الذي قتل أيضاً في سنة (٥٥٨هـ = ١١٦٣م)، على يد أحد منافسيه وهو «شاور بن مجير السعدي» الذي تولى الوزارة بعده.

كان «شاور» انتهازياً سيئ الطبع، خبيثاً سفاكاً للدماء، أساء معاملة الرعية، فثار عليه أحد القادة المشهورين في «مصر» وهو «ضِرْغام بن عامر»، واستطاع هزيمته هزيمة ساحقة وكان ذلك بداية الطريق لانتهاء النفوذ الفاطمي في «مصر».

لجأ «شاور» بعد هزيمته إلى السلطان «نور الدين محمود» بالشام، وأطمعه في ملك «مصر»، فأرسلَ معه حملة للاستيلاء على «مصر» بقيادة «أسد الدين شيركوه بن شاوى الكردي» عم «صلاح الدين الأيوبي»، فدخل «القاهرة» في أواخر (جمادى الآخرة سنة ٥٥٩هـ = مايو سنة ١١٦٤م)، وقتل «ضرغام»، وأعاد «شاور» للوزارة

في (رجب سنة ٥٥٩هـ = مايو سنة ١١٦٤م)، إلا أن «شاور» غدر بعهده مع السلطان «نور الدين محمود» وقائده «أسد الدين»، فطلب من «أسد الدين» العودة إلى «الشام» فرفض واتجه إلى مدينة «بلبيس»، واستولى عليها وتحصن بها.

استعان «شاور» بملك «بيت المقدس» الصليبي «أملريك» الذي تسميه المصادر العربية «مري»، وشرح له ما قد يتعرض له الفرنج من مخاطر إذا استولى السلطان «نور الدين محمود» على «مصر»، فاستجاب له «أملريك» وتقدم بجيشه نحو «مصر»؛ حيث اتجه مع «شاور» إلى «بلبيس» لمحاصرة «أسد الدين شيركوه»، إلا أن الأخبار جاءت إلى «أملريك» بأن «نور الدين محمود» انتهز فرصة غيابه عن «فلسطين» فهاجمها واستولى على بعض قلاعها، فاضطر «أملريك» إلى رفع الحصار عن «أسد الدين شيركوه» والتفاوض معه على العودة إلى «الشام»، فتوجه «أسد الدين» إلى «الشام» في (ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ = أكتوبر ١١٦٤م).

وفي (ربيع الآخر سنة ٥٦٢هـ = فبراير سنة ١١٦٧م) قاد «أسد الدين» حملته الثانية على «مصر»، بعد استئذان السلطان «نور الدين محمود»، فاستنجد «شاور» بالصليبيين وملك «بيت المقدس» «أملريك»، والتقى الطرفان في مكان يسمى «البابين» بنواحي «المنيا» بصعيد «مصر» في (٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ = إبريل سنة ١١٦٧م)، واستطاع «أسد الدين شيركوه» أن يهزم جيش «أملريك» و«شاور» رغم قلة جنده، كما استولى على «الإسكندرية» وأناب عليها ابن أخيه «صلاح الدين»، واستولى على الصعيد.

وقد حاول الفرنج انتزاع «الإسكندرية» من «صلاح الدين» فحاصروها عدة أشهر بلا فائدة، فتم الاتفاق بين الفرنج و«أسد الدين» على تسليم «الإسكندرية» لـ«شاور» مقابل حصول «أسد الدين» على خمسين ألف دينار وانسحاب الفرنج من «مصر».

وتطورت الأحداث في «مصر» بصورة خطيرة، فقد حاول ملك «بيت المقدس» «أملريك» السيطرة على «مصر» بمعاونة «شاور»، فاستولى على «بلبيس» في (صفر ٥٦٤هـ = نوفمبر سنة ١١٦٨م) وتوجه إلى «القاهرة» وحاصرها، مما دفع الخليفة الفاطمي «العاضد» إلى أن يستغيث بالسلطان «نور الدين محمود»، الذي أرسل إليه حملة بقيادة «أسد الدين شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»، فرفع الفرنج

الصليبيون حصارهم عن «القاهرة» وتركوا «مصر» قبل وصول جيش «أسد الدين شيركوه»، فأصبح الطريق ممهداً أمام «أسد الدين»، ودخل «القاهرة» في (٧ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ = ٨ من يناير ١١٦٩م)، وقتل «شاور» بإذن من الخليفة «العاضد» في (١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ = ١٨ من يناير سنة ١١٦٩م) وأصبح «أسد الدين شيركوه» وزيراً للخليفة «العاضد»، وبعد وفاته في (٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ) تولى ابن أخيه «صلاح الدين» الوزارة ولقبه «العاضد» بالملك الناصر، فانتهى نفوذ «الفاطميين» الفعلي في «مصر» وأصبحت خلافتهم شكلية فقط.

وعقب تولي «صلاح الدين» الوزارة، بدأ يمهد الأمور للقضاء التام على النظام الفاطمي في «مصر»، فاستقل بالأمور، ومنع الخليفة «العاضد» من التصرف في شؤون البلاد، ثم عزل قضاة «مصر» الشيعة سنة (٥٦٦هـ = ١١٧١م)، وعيَّن «عبد الملك بن درباس» من كبار فقهاء الشافعية في منصب «قاضي القضاة»، وأوقف الأذان بـ«حيَّ على خير العمل» في ديار «مصر» كلها، وهى العبارة التي تقحمها الشيعة في صيغة الأذان المعروفة.

وفي (الجمعة الثانية من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ = سبتمبر سنة ١١٧١م) أمر «صلاح الدين» خطباء «مصر» بقطع الخطبة لـ«العاضد» وأن يخطبوا للخليفة العباسي «المستضيء»، وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية في «مصر»، وخضعت «مصر» مرة ثانية للخلافة العباسية، مما كان له صدى هائل من الفرح والبهجة في مجتمع أهل السنة في جميع بقاع العالم الإسلامي.

وقد تُوفِّي الخليفة «العاضد» في (العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ = ١٣ من سبتمبر سنة ١١٧١م) بعد قطع الخطبة له وانتهاء خلافته بأيام قليلة.

جدير بالذكر أن «صلاح الدين» كان يحكم «مصر» في ذلك الوقت نائباً عن السلطان «نور الدين محمود»، الذي كان خاضعاً للخليفة العباسي ببغداد من الناحية الشكلية، وقد تُوفِّي «نور الدين محمود» في (١١ من شوال سنة ٥٦٩هـ = أبريل سنة ١١٧٤م)، مما مهد الطريق أمام «صلاح الدين» للاستقلال بحكم «مصر»، وضم ممتلكات «نور الدين» في «الشام» إلى «مصر»؛ حيث قامت «الدولة الأيوبية» التي كانت تدين بالولاء الرسمي للخلافة العباسية.

خامساً: تدهور علاقة السلاجقة بالخلفاء العباسيين:

رغم تعدد روابط المصاهرة بين «السلاجقة» و«العباسيين» واحترام السلاطين «السلاجقة» لمنصب الخلافة وإذعانهم له، فقد حدث نزاع بين الطرفين في بعض الأوقات، وصل أحياناً إلى استخدام السيف، فبعد أن بايع الخليفة «المقتدي» ولده «المستظهر بالله» بولاية العهد، اعترض السلطان «ملكشاه» على ذلك وألزم الخليفة بخلعه وتعيين ابنه الأصغر «جعفر» ولياً للعهد؛ لأنه كان ابن بنت السلطان. كما أمر السلطان الخليفة بأن يسلم له «بغداد» وأن يخرج إلى «البصرة»، فشق ذلك على الخليفة ولم ينقذه من ذلك إلا وفاة السلطان.

وفي عهد الخليفة «المسترشد بالله» (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ = ١١١٨ ـ ١١٣٥م) وابنه «الراشد بالله» (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ = ١١٣٥ ـ ١١٣٦م) تعرضت العلاقة بين «السلاجقة» والخلفاء إلى أزمة خطيرة انتهت بقتل الأول وخلع الثاني.

سادساً: ظهور الدولة الخوارزمية وقضاؤها على السلاجقة:

نشأت «الدولة الخوارزمية» في ظلال «دولة السلاجقة»، فقد ظهر في عهد «ملكشاه الأول» مملوك تركي اسمه «أنوشتكين»، تمتع بتقدير خاص في بلاط «السلاجقة»، وبسبب ما كان يتمتع به هذا المملوك من حسن الخلق والشجاعة، فقد ولاه السلطان «ملكشاه» ولاية «خوارزم».

وعندما تُوفِّي «أنوشتكين» سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م)، تولى ابنه «محمد» إمارة «خوارزم»، وكان يلقب «قطب الدين»، و«خوارزم شاه» أي أمير «خوارزم»، واستمر في الإمارة ثلاثين عاماً، أسس خلالها «الدولة الخوارزمية».

وعقب وفاة مؤسس «الدولة الخوارزمية» سنة (٥٢٢هـ = ١١٢٨م) خلفه في منصبه ابنه «أتسز»، بموافقة السلطان «سنجر»، وتلقب بـ«أبي المظفر علاء الدولة»، ورغم أن علاقة «أتسز» بـ«سنجر» بدأت طيبة كما كانت في عهد أبيه «محمد»، فإنها لم تلبث أن تدهورت بعد أن أظهر «أتسز» رغبته في الاستقلال عن «السلاجقة»، مما دعا السلطان «سنجر» إلى مهاجمته وإجباره على الاستسلام، وقد تُوفِّي «أتسز» عام (٥٥١هـ = ١١٥٦م) قبل وفاة «سنجر» بعام.

وقد تميز عهد «أتسز» في «خوارزم» بازدهار الحركة العلمية والفكرية، وارتبط بهذا العهد اسم عالم من أشهر رجال الفكر الإسلامي هو «جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي» صاحب الإنتاج الوافر في علوم التفسير والكلام والنحو واللغة، ومن أشهر مؤلفاته: «الكشاف» في تفسير القرآن الكريم.

وتولى سلطنة «خوارزم» بعد «أتْسِز» ابنه «إيل أرسلان» «تاج الدين أبو الفتح»، الذي استمر في الحكم من سنة (٥٥١هـ = ١١٥٦م) إلى سنة (٥٦٧هـ = ١١٧٢م)، ثم تولَّى بعده ابنه الأصغر «سلطان شاه» الذي دخل في صراع مع أخيه الأكبر «علاء الدين تَكَشْ» حول السلطة، وانتهى باستيلاء «تَكَشْ» على «خوارزم» سنة (٥٦٨هـ = ١١٧٣م).

وتعد فترة حكم «تكش» (٥٦٨ - ٥٩٦هـ = ١١٧٣ - ١٣٠٠م) العصر الذهبي للدولة الخوارزمية، فقد استطاع أن يمد حدود إمارته الصغيرة إلى «الهند» و«الخليج الفارسي» جنوباً، وإلى «الفرات» و«شمال الفولجا» غرباً.

ومما أضفى مزيداً من الأهمية على حكم «تكش» انتصاره على السلطان السلجوقي «طغرل الثالث» (٥٧١ - ٥٩٠هـ = ١١٧٥ - ١١٩٤م)، في المعركة التي وقعت قرب «الري» والتي انتهت بقتل السلطان السلجوقي وانهيار «دولة السلاجقة» في شهر (ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ = مارس ١١٩٤م).

وقد ترتب على ذلك سيطرة «تكش» على معظم البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ سلاجقة «العراق»، وأهمها «همذان» و«أصفهان» و«الري»، وصارت بلاد «الجبل» أو ما يسمى «العراق العجمي» من أملاك «الدولة الخوارزمية».

وقد حاول الخليفة العباسي «الناصر لدين الله» (أبو العباس أحمد بن المستضيء) أن يضع حداً لأطماع «تكش» ونفوذه، وكان ذلك بداية المرحلة الأخيرة في العصر العباسي الثاني.

عصر ما بعد السلاجقة

٥٩٠ ــ ٦٥٦هـ

وعدد خلفائه ٤

المستضيئ بأمر الله

|

[١] الناصر لدين الله

|

[٢] الظاهر بأمر الله

|

[٣] المستنصر بالله

|

[٤] المستعصم بالله

رابعاً: عصر ما بعد السلاجقة

(٥٩٠ ـ ٦٥٦هـ=١١٩٤ ـ ١٢٥٨ م)

تعاقب في منصب الخلافة في هذا العصر أربعة خلفاء هم:

١ ـ الناصر لدين الله
(٥٩٠ ـ ٦٢٢هـ = ١١٩٤ ـ ١٢٢٥م).

٢ ـ الظاهر بأمر الله (أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله)
(٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ = ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦م).

٣ ـ المستنصر بالله (أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله)
(٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ = ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م).

٤ ـ المستعصم بالله (أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله)
(٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ = ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م).

أما أول هؤلاء الخلفاء ـ وهو «الناصر لدين الله» ـ فقد حاول أن يضع حداً لطموح «علاء الدين تكش»، الذي أراد أن يتنازل له الخليفة عن السلطة المدنية في «بغداد»، وأن يكتفي بالسلطة الإسمية على العالم الإسلامي، فأشعل الخليفة فتيل الصراع بينه وبين سلطان الغور «غياث الدين محمد بن بهاء الدين»، ونشبت بينهما الحرب سنة (٥٩٤هـ = ١١٩٨م) وانتهت بهزيمة «تكش».

ولم يكتفِ الخليفة «الناصر» بالاستعانة بـ«الغوريين» لإضعاف نفوذ الخوارزميين، بل إنه استعان بـ«الإسماعيلية الباطنية»، وطلب من التتار (المغول) مساعدته في القضاء على نفوذ أمراء «خوارزم»، فكان «الناصر» كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث قضى التتار على «الدولة الخوارزمية»، وقضوا على «الخلافة العباسية» أيضاً.

ظهور المغول والقضاء على الدولة الخوارزمية:

المغول اسم أطلقه «جنكيز» على أتباعه، وهم شعب وثيق الصلة بالترك في اللغة والشكل، يُقيم في المنطقة الواقعة ما بين «الصين» و«سيبريا الجنوبية» والمنطقة المعروفة اليوم باسم «منغوليا».

ويرى بعض الباحثين أن «المغول» كلمة أوسع دلالة من «التتار» الذين يمثلون جزءاً من المغول، ولكن الاستعمال الشائع الآن يسوي بين الكلمتين في الدلالة.

وقد كان المغول قبائل صغيرة تعيش في فقر وانحطاط، واستطاع «جنكيز خان» في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن يوحِّد هذه القبائل لتصبح «منغوليا» كلها تحت سلطانه سنة (٦٠٣هـ = ١٢٠٦م)، وقد تلقب منذ ذلك الحين بلقب «إمبراطور»، وعرف باسم «جنكيز خان» بدلاً من اسمه الأصلي «تموُين» أو «تيمورُي».

وقد استطاع «جنكيز خان» تكوين إمبراطورية شاسعة، ففي سنة (٦١٢هـ = ١٢١٥م) استولى على «بكين» وفي ذي الحجة سنة (٦١٦هـ = ١٢١٩م) استولى على مدينة «بخارى» عاصمة «ما وراء النهر» وأشعل فيها النار، فحولها إلى كومة رماد، وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً.

وفي (١٠ من المحرم سنة ٦١٧هـ = ١٧ من مارس سنة ١٢٢٠م) استولى على «سمرقند»؛ فسوَّاها بالأرض بعد أن قتل أهلها بلا رحمة.

وفي (شوال سنة ٦١٧هـ = نوفمبر سنة ١٢٢٠م) تُوفِّي السلطان «علاء الدين محمد بن تكش» بعد أن استبد به الغم بسبب سقوط «ما وراء النهر» في يد المغول واقترابهم من «خوارزم»، فتولى بعده ابنه «جلال الدين منكوبردي»، الذي يعرف عادة باسم «جلال الدين منكبرتي»، وهو آخر سلاطين «خوارزم».

وفي أوائل عهد «جلال الدين» سنة (٦١٨هـ = ١٢٢١م) استولى المغول على «خوارزم» بعد حصار دام خمسة أشهر، وسقطت بذلك «الدولة الخوارزمية» ببلاد «ما وراء النهر»، وفر السلطان «جلال الدين» متنقلاً في عدة بلاد حتى قتله جماعة من الأكراد الناقمين بإحدى قرى «ميافارفين»، في منتصف (شوال سنة ٦٢٨هـ =

أغسطس سنة ١٢٣١م)، ففقد المسلمون بطلاً كانوا يطمعون في توحيد صفوفهم تحت لوائه لإيقاف طوفان المغول الجارف.

وقد تُوفِّي الخليفة «الناصر» في أواخر(رمضان سنة ٦٢٢هـ = سبتمبر ١٢٢٥م) وعمره نحو سبعين عاماً، بعد أن استمر في الحكم سبعةً وأربعين عاماً. وقد شهدت خلافته سقوط «دولة السلاجقة»، وظهور قوة «المغول»، وإسقاطهم «الدولة الخوارزمية»، وتهديدهم للعالم الإسلامي كله، وكانت الخلافة العباسية قد فقدت معظم أرضها ولم تعد كلمة الخليفة مسموعة إلا في بعض «العراق»؛ فأصبحت الخلافة شكلاً بلا مضمون ووقفت عاجزة أمام هذه الأحداث التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية كلها.

وقد تولى الخلافة بعد «الناصر» ابنه «أبو نصر محمد» الملقب بالظاهر بأمر الله، وكان حسن السيرة، عادلاً، لكن خلافته لم تطل، فقد تُوفِّي في (١٤ من رجب سنة ٦٢٣هـ = ١١ من يوليو سنة ١٢٢٦م)، فلم يدم في الخلافة عاماً.

وتولى الخلافة بعد الظاهر بأمر الله ابنه «أبو جعفر المنصور» الملقب بـ«المستنصر بالله»، فسار على طريقة أبيه في العدل والإحسان وتقريب أهل العلم والدين، وقمع المتمردين، ولكن الظروف القاسية التي أحاطت بالخلافة في ذلك الوقت قيَّدت الخلفاء وشلّت قدرتهم على العطاء، فقد تصاعد خطر «المغول» في خلافة «المستنصر بالله» (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ = ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م)، وأصبح على أبواب «العراق»، حيث تعرضت «الجزيرة» في شمال «العراق» لهجمات المغول المدمرة.

وقد اجتمع على المسلمين في هذه الفترة الخطر المغولي القادم من الشرق، والخطر الصليبي القادم من الشمال، وانشقاق البيت الأيوبي على نفسه عقب وفاة «صلاح الدين الأيوبي»، ولم يستطع الخليفة «المستنصر» أن يفعل شيئاً لعدم قدرته على ذلك.

وبعد وفاة الخليفة «المستنصر» في (جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ = نوفمبر سنة ١٢٤٢م) تمت البيعة لابنه «أبي أحمد عبد الله» الملقب بـ«المستعصم بالله»، وهو آخر الخلفاء العباسيين في «العراق»، وكان عمره حينئذٍ ثلاثين عاماً.

ورغم أن «المستعصم بالله» كان موصوفاً بالصلاح والتمسك بالسنة، فإنه لم يكن كأبيه «المستنصر» أو جده «الناصر» في التيقظ والحزم وعلُوِ الهمة.

ومما زاد الموقف سوءاً استعانته منذ سنة (٦٤٢هـ = ١٢٤٤م) بوزيرٍ غير ثقة هو مؤيد الدين «أبو طالب محمد بن أحمد العلقمى»، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال «الدولة العباسية»، ونقل الخلافة إلى «العلويين»، ويقال إنه راسل المغول وأطمعهم في القدوم إلى «بغداد»، حتى ينجو من القتل عندما يدخلونها.

وقد شهدت خلافة «المستعصم» حدثاً خطيراً كانت له آثاره البعيدة في التاريخ الإسلامي هو انتهاء حكم «الأسرة الأيوبية» في «مصر» وبداية حكم «المماليك»، سنة (٦٤٨هـ = ١٢٥٠م)، وكان الملك المعظم «توران شاه» آخر حكام «الأيوبيين» في «مصر»، ولم يستمر حكمه شهراً، فقد تولى الحكم في أول شهر(المحرم سنة ٦٤٨هـ = منتصف إبريل سنة ١٢٥٠م)، وقتل في السابع والعشرين من الشهر نفسه بتدبير زوجة أبيه «الملك الصالح» المعروفة باسم «شجرة الدر» التي تولت الحكم بعده وتزوجت «عز الدين أيبك التركماني»، أحد مماليك زوجها الراحل «نجم الدين أيوب»، ثم خلعت نفسها من الحكم بعد ثلاثة أشهر هي صفر وربيع الأول وربيع الثاني من عام (٦٤٨هـ = ١٢٥٠م)، وتولى زوجها «المعز أيبك» حكم «مصر»، وكان ذلك بداية العصر «المملوكي» في «مصر».

وقد استمر الملك «عز الدين أيبك» في حكم «مصر» سبع سنوات، ثم قُتل في الثالث والعشرين من شهر(ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ = ١٠ من إبريل سنة ١٢٥٧م) بتدبير زوجته «شجرة الدُّر»، حين أراد الزواج عليها، فتولى الحكم بعده ابنه «الملك المنصور نور الدين علي بن أيبك»، وكان صبيّاً في الخامسة عشرة من عمره، لا يحسن تدبير الأمور، فتم خلعه بعد ولايته بنحو سنتين وثمانية أشهر في (١٧ من ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ = ٥ من نوفمبر سنة ١٢٥٩م)، وتولى زمام السلطة بعده «الملك المظفر سيف الدين قطز»، الذي كان له شأن كبير في الجهاد الإسلامي ضد «المغول».

سقوط بغداد في يد المغول وانهيار الخلافة العباسية في العراق (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م):

تصاعد خطر المغول في خلافة «المستعصم بالله»، وخرج قائدهم «هولاكو» ـ حفيد «جنكيزخان» ـ على رأس جيش يبلغ تعداده مائتي ألف قاصداً «العراق»، وأرسل إلى الخليفة «المستعصم» يطالبه بالاستسلام والدخول في طاعته، لكن الخليفة أرسل بعض الهدايا إلى «هولاكو».

وقد وصل جيش «هولاكو» إلى «بغداد» في شهر (المحرم سنة ٦٥٦هـ = يناير سنة ١٢٥٨م) وأحاط بعاصمة الخلافة، وكان جيش «بغداد» قليل العدد لا يبلغ عشرة آلاف فارس، بعد أن كان مائة ألف في عهد الخليفة «المستنصر»، ولم يصمد جيش «بغداد» طويلاً في مواجهة المغول، فاقتحمت قوات «هولاكو» «بغداد» في (١٠ من المحرم سنة ٦٥٦هـ = ١٧ من يناير سنة ١٢٥٨م)، وقبض «هولاكو» على الخليفة «المستعصم» وأهل بيته، بتدبير من وزيره الخائن «ابن العلقم»، كما تم القبض على عدد كبير من علماء «بغداد» وأعيانها وأمرائها، وتم قتلهم جميعاً، واستمر القتال في «بغداد» أربعين يوماً، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون شخص، وكانت بلية لم يُصب الإسلام بمثلها.

وهكذا أسقط المغول «الخلافة العباسية» في «بغداد» سنة (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)، بعد أكثر من خمسة قرون من قيامها سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م)، وقد ظن المغول أن سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق أمامهم لاكتساح العالم الإسلامي، ولكن آمالهم تحطمت على صخرة الجهاد الباسل في معركة «عين جالوت» بفلسطين في رمضان سنة (٦٥٨هـ = ١٢٦٠م)، بقيادة سلطان «مصر» المملوكي «قطز»، مما مهد الطريق لإحياء الخلافة العباسية في «مصر» على يد السلطان «الظاهر بيبرس» سنة (٦٥٩هـ = ١٢٦١م).

بعض الدول المستقلة أثناء الخلافة العباسية:

■ دولة الموحدين في الأندلس:

اضمحلت دول المرابطين في الأندلس بعد وفاة «يوسف بن تاشفين»، وقد أطمع اضمحلالها ملوك النصارى، فتحالفوا للقضاء عليها، فسارع الموحدون إلى

صدهم ودخلت جيوشهم الأندلس سنة ٥٤٣هـ والتحموا مع الإسبان في معركة ضارية عرفت بمعركة (الأرك) وانتصروا عليهم نصراً مبيناً.

وقد أخذ الإسبان بعدها يعدون العدة لمعركة أخرى، جمعوا لها قواهم وحشدوا جيوشهم، والتقوا مع جيش الموحدين سنة ٦٠٩هـ في معركة عرفت بمعركة (العقاب) وكانت معركة فاصلة تم فيها النصر للإسبان.

نهاية دولة الموحدين في الأندلس:

بعد معركة «العقاب» بدأ مصير الأندلس يهتز بيد القدر، وأخذت قواعد الأندلس تسقط في يد الإسبان ولم تأت سنة ٦٤٤هـ حتى سقطت دولة «قرطبة» و«بلنسية» و«دانية» و«مرسية» في أيديهم. أما «غرناطة» فقد ثبتت خلف حصونها. ثم انهارت مقاومتها وسقطت بيد الإسبان سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) وبسقوطها انتهى الحكم العربي في إسبانيا وزالت دولة الإسلام بعد حكم دام ثمانمائة عام.

- **الدولة الغورية:**

تأسست هذه الدولة في بلاد «الغور» سنة ٤٣٩هـ بزعامة «عز الدين حسين بن حسن بن محمد» وأخذت تزاحم الدولة الغزنوية حتى قضت عليها سنة ٥٨٢هـ وضمتها إليها، وقد امتدت فتوحاتها إلى بلاد الهند ومنها انبثقت دولة المماليك الأتراك، وكان «قطب الدين أيبك» أول ملوكهم في الهند. وفي عام (٦١٢هـ) خضعت الدولة الغورية للسيادة الخوارزمية وزالت معها بالغزو المغولي سنة ٦٢٨هـ.

- **الدولة الخوارزمية:**

قامت هذه الدولة في بلاد خوارزم جنوب بحيرة (آرال) ومصب نهر (جيحون)، بزعامة القائد التركي (أنوشتكين)، وكان السلطان السلجوقي قد ولاه عليها سنة (٤٧٠هـ)، وقد اتسعت في عهد ملكها «سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان» باستيلائها على خراسان وإزالة الحكم السلجوقي عنها بعد وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه سنة (٥٥٢هـ) ثم باستيلائها على الدولة الغورية سنة (٦١٢هـ). وفي عام (٦٢٨هـ) استولى عليها المغول وأزالوا دولتها في عهد آخر ملوكها «جلال الدين منكبرتي».

■ الدولة الأرتقية:

تنتسب هذه الدولة إلى زعيم عشيرة من التركمان يدعى (أرتق بن أكسب)، وكان قد التحق عام (٤٤٩هـ) بخدمة السلطان السلجوقي «تتش بن ألب أرسلان» صاحب بلاد الشام فأقطعه القدس وما حولها. ولما توفي (أرتق) خلفه ولداه: «معين الدين سقمان»، و«نجم الدين إيلغازي». وفي سنة (٤٩١هـ) استرد الفاطميون القدس فأخرجوهما منها، فتوجها بقومهما من التركمان إلى الجزيرة الفراتية فتملك «معين الدين سقمان» ديار بكر (آمد) وتملك «نجم الدين إيلغازي» (ماردين) وأقام كل منهما فيما تملك دولة أرتقية.

وفي عام (٥١١هـ) حاصر الصليبيون مدينة حلب فاستنجد أهلها بـ«نجم الدين إيلغازي» فأنجدهم وقاتل الصليبيين في معركة جرت في (سهل بلاط) سنة ٥١٣هـ وأسر زعيمهم (روجيه ده سالرنو) أمير أنطاكية، وتملك حلب وأقام فيها دولة أرتقية تعاقب أبناؤه عليها إلى أن استولى عليها «عماد الدين زنكي» عام (٥٢١هـ)، وأقام فيها دولة أتابكية.

■ دولة المرابطين في الأندلس:

في عام (٤٧٧هـ) استولى «ألفونسو السادس» ملك (ليون) على «طليطلة» واستخلصها من «بني ذي النون»، وعقد حلفا مع ملوك الأقاليم المسيحية للاستيلاء على «إشبيلية»، فاستنجد أميرها «المعتمد بن عباد بيوسف بن تاشفين»، أمير دولة المرابطين في المغرب الأقصى، فأنجده وقدم إلى الأندلس على رأس جيش من البربر وقاتل «ألفونسو» ومحالفيه في معركة شهيرة جرت في موقع يعرف بالزلاقة، بالقرب من بطليوس وذلك في (١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ)، وانتهت بنصر المرابطين وسحق الجيش الإسباني.

وبعد هذه الموقعة أخذ المرابطون يستولون على دول الطوائف واحدة بعد أخرى وينفون ملوكها إلى المغرب الأقصى، وأقاموا في الأندلس دولة للمرابطين عاصمتها قرطبة. وقد دامت دولتهم حتى قضى عليها الموحدون بزعامة «عبد الله بن تومرت».

■ **الدولة الغزنوية:**

قامت هذه الدولة بزعامة القائد التركي (ألب تكين) وكان مولاه «منصور بن نوح الساماني» ملك خراسان قد ولاه سنة (٣٥١هـ) أميراً على سجستان (أفغانستان)، فاستقل بها وأقام فيها دولة اتخذ (غزنة) عاصمة لها فعرفت بالدولة الغزنوية، وقد تعاقب عليها واحد وعشرون ملكاً كان أشهرهم «محمود بن سُبُكتكين» المعروف بـ«محمود الغزنوي». ثم انقضى عهدها باستيلاء الدولة الغورية عليها سنة (٥٨٢هـ) في عهد آخر ملوكها «تاج الدولة خسرو ملك».

■ **الدولة الأيوبية:**

تنتسب هذه الدولة إلى «صلاح الدين بن نجم الدين أيوب»، وقد استقل بمصر بعد وفاة العاضد الفاطمي سنة (٥٦٧هـ)، وكان وزيراً له بعد قتل وزيره «شاور بن مجير السعدي». استولى «صلاح الدين» على بلاد الشام بعد وفاة «نور الدين محمود» وضمها إلى مملكة مصر وضم إليها الحجاز واليمن وبعض أنحاء الجزيرة.

وقد قسم «صلاح الدين» أقاليم الدولة، قبل وفاته، بين أبنائه وإخوته فتحولت الدولة الكبرى بعد وفاته سنة (٥٨٩هـ) إلى دويلات ثارت فيها الحروب والفتن بين أصحابها فتهاوى بعضها إثر بعض وكانت مصر أول ما انهار منها فسقطت بيد المماليك في عهد السلطان «تورانشاه بن نجم الدين أيوب» آخر ملوك الدولة الأيوبية في مصر. وقد تتابع سقوط الدويلات الأيوبية الأخرى في بلاد الشام في عهد الملك المملوكي «الظاهر بيبرس البند قداري» وضمت إلى دولة المماليك.

■ **دولة الأمويين في الأندلس:**

١ ـ لما سقطت دولة بني أمية، أخذ العباسيون يتتبعون الأمويين ويقتلون من يظفرون به، وقد تمكن «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان» أن يفلت من قبضتهم وأن ينجو من القتل، وتوجه متخفياً إلى المغرب لاجئاً إلى قبيلة (نفزة) وفيها أخواله. فلما اطمأن إلى نفسه، أخذ يكاتب من ظل من أهل الأندلس على ولائه لبني أمية، فجاءه تأييدهم لقدومه. وفي شهر ذي الحجة من عام ١٣٨هـ اجتاز «عبد الرحمن» البحر، ومعه جمع من العرب والبربر، ونزل في ميناء

(المنكب) من أرض الأندلس، وانضم إليه من كان يرقب قدومه، وتوجه إلى قرطبة فدخلها بعد أن قضى على أميرها «يوسف بن عبد الرحمن الفهري»، المعتمد من قبل الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور»، ومن ثم «دعي عبد الرحمن بلقب (الداخل)». تمكن «عبد الرحمن» من القضاء على الثورات التي أثارها المؤيدون لبني العباس، وفيهم الطامعون بالاستقلال بما في أيديهم من أقاليم ومدن، ومنهم من استنصر بـ«شارلمان»، ملك الفرنجة، فجاء بجيوشه سنة (١٦١هـ ـ ٧٧١ م)، ولكنه لم يلبث أن عاد بعد أن فشل في حملته. ولم يصرف «عبد الرحمن» انشغاله بقمع تلك الثورات التي توالت طيلة حكمه عن العمران، فقد أنشأ جامع قرطبة الذي أصبح جامعة اجتذبت إليها مشاهير علماء المشرق.

٢ ـ توفي «عبد الرحمن» سنة (١٧٢هـ) فخلفه ابنه «هشام الأول» بعهد من أبيه، فثار عليه أخواه «سليمان وعبد الله»، ينازعانه الإمارة، وامتدت ثورتهما إلى عهد ابنه «الحكم الأول». وقد تمكن «هشام» من صد هجمات ملوك الفرنجة واستولى على بعض قلاعهم وحصونهم، وأضاف إلى جامع قرطبة المئذنة، وجدد بناء القنطرة على نهر قرطبة المعروف باسم (الوادي الكبير)، وكان «السمح بن مالك» أمير الأندلس قد بناها سنة ١٠٠هـ.

٣ ـ توفي «هشام الأول» سنة (١٨٠هـ)، وخلفه ابنه «الحكم الأول» بعهد من أبيه فقمع ثورة عميه «سليمان وعبد الله» بقتل الأول واستسلام الثاني، وقضى على ما نشب من فتن، وغزا بلاد الفرنجة وصد عدوانهم على الثغور.

٤ ـ توفي «الحكم الأول» سنة (٢٠٦هـ)، فخلفه ابنه «عبد الرحمن الثاني» بعهد من أبيه. في عهده ثارت فتنة بين اليمينية والمضرية على منطقة (تدمير)، فقمعها الحكم وأمر بهدم (تدمير) وأقام مكانها مرسى للسفن، فسميت (مرسية)، وأخمد عصيان أهل طليطلة وتابع غزو الممالك النصرانية.

٥ ـ توفي «عبد الرحمن» الثاني سنة (٢٣٨هـ)، فخلفه ابنه «محمد الأول» بعهد من أبيه. في عهده ثار المولدون بزعامة «عمر بن حفصون»، وثار عليه أهل طليطلة وتحالفوا مع ملك (جليقة). وأثار الراهب (ايلوخيو) فتنة انتهت بقتله. ونشبت بين «محمد» وبين ملوك النصارى حروب انتهت بغلبته عليهم والاستيلاء على كثير من

قلاعهم وحصونهم. في عهده هاجم (النورمان ـ الفايكونج) السواحل الأندلسية وتولى قائد البحرية الأندلسية (خشخاش بن سعيد) طردهم.

٦ ـ توفي «محمد الأول» سنة (٢٧٣هـ)، وخلفه ابنه المنذر الأول، ولم يطل حكمه سوى سنتين.

٧ ـ توفي «المنذر» سنة (٢٧٥هـ)، وخلفه أخوه «عبد الله بن محمد». ثار عليه أمراء إشبيلية وتتابعت في عهده ثورات المولدين وطال حكمه خمساً وعشرين سنة.

٨ ـ توفي «عبد الله بن محمد» فخلفه حفيده «عبد الرحمن (الثالث)»، وتلقب بلقب الخلافة، حين انهارت سلطة الخليفة في بغداد، وهو أول من تلقب بلقب الخلافة في دولة الأمويين بالأندلس، وكان أسلافه يتلقبون بلقب (الإمارة). امتد حكمه خمسون سنة أمضاها في قمع الثورات وفي حروبه مع الفرنجة. وقد بلغت الدولة الأموية في عهده منتهى رفعتها في القوة والعلم والعمران. ففي القوة كان لها السيطرة الكاملة على بلاد الثغور المتاخمة لبلاد العدو، وفي العلم أصبحت قرطبة محجة العلماء، وكثر قصادها من أعلام المشرق، ونفست بهم على بغداد. وفي العمران بني «عبد الرحمن» مدينة الزهراء، وصب فيها عبقرية العرب في الهندسة والبناء والزخرفة العجيبة، فجاءت أعجوبة الزمان وآية من آيات الفن الرفيع. وقد أضاف إلى لقب الخلافة لقب (الناصر لدين الله)، فكان يعرف به.

٩ ـ توفي «عبد الرحمن الناصر» سنة (٢٥٠هـ)، فخلفه ابنه «الحكم الثاني» بعهد من أبيه وتلقب بلقب «المستنصر بالله»، وقد سار سيرة أبيه، فحارب ملوك (قشتالة) و(ليون) و(نافار) وقهرهم وصد هجماتهم. في عهده أغار (النورمان ـ الفايكونج) على السواحل الأندلسية للمرة الثانية فصدهم. ازدحم العلماء على بابه، وغصت بهم مجالسه، وترجمت إلى العربية كتب كانت تهدى إليه من أباطرة الروم، وقد أنشأ مكتبة حوت أربعمائة ألف مجلد، ولم يكن من أهل الأندلس في عهده من لا يعرف القراءة والكتابة، بينما كان الجهل يسود أوروبا، ولم يكن فيها من يعرف الكتابة والقراءة إلا القليل.

١٠ ـ توفي «الحكم الثاني المستنصر بالله» سنة (٣٦٦هـ)، وخلفه ابنه «هشام الثاني» بعهد من أبيه وتلقب بلقب «المؤيد بالله»، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة

من عمره. وكان العهد إليه بإصرار أمه «صبح» البشكنسية عن زوجها الحكم وبتأييد حاجب القصر «محمد بن أبي عامر». وقد استطاع هذا الحاجب أن ينتزع السلطة من الخليفة القاصر وأن يستقل بها وأن يقيم الدولة العامرية بزعامته.

■ الدولة الفاطمية:

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية سنة (٢٩٨هـ)، بزعامة «عبيد الله المهدي» مدعياً أنه صاحب الحق في الخلافة وأنه حفيد «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» وقد مهد لقيامها داعية إسماعيليّ يدعى «أبو عبد الله الشيعي»، وحشد لنصرتها قبيلة (كتامة)، وعرفت بالدولة العبيدية. ولما رسختْ قواعدها قضت على دولة الأغالبة في القيروان ثم قضت على دولة «الإخشيد» في مصر، وبنت فيها مدينة القاهرة، ثم انتقلت إليها في عهد «المعز لدين الله» ودعيت بالدولة الفاطمية. ولم يستطع الخليفة العباسي «المقتدر بالله» أن يدفع قيامها وكل ما فعله أنه أصدر منشوراً بالطعن في نسب «المهدي»، وقعه وجهاء الهاشميين بما فيهم العلويون، ومهما قيل في نسب الفاطميين فقد استطاعوا أن يحيوا مجداً وأن يبنوا نهضة وأن يرفعوا مناراً. غير أن الأمل الذي تفتح بقيامها لم يلبث غير زمن قصير، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية تراخت فيها قوتها وانتهت إلى الزوال. وقد بدأ هذا التراخي في عهد الحاكم «بأمر الله» لسوء تصرفاته، ومنها إقدامه على هدم كنيسة القيامة في القدس وكان هدمها من أسباب قيام الحروب الصليبية، وازداد الضعف والتراخي في عهد «المستنصر بالله الفاطمي»، فقد ولد من جارية تربت في بيت يهودي يدعى «أبا سعيد التستري»، وتولت أمه تدبير أمور الدولة واستوزرت وزراء يهود، منهم «صدقة بن يوسف الفلاحي» و«أبو سعيد التستري»، وقد أسند هؤلاء مناصب الدولة إلى أبناء جلدتهم من اليهود، فاضطهدوا المسلمين، وقد عبر شاعر عن ذلك بقوله:

يهودُ هذا الزَّمَانِ قد بَلَغُوا ... غَايَةَ آمالِهم وقد ملكُوا

العزُّ فيهم والمالُ عندَهَمْ ... ومنهمُ المستشارُ والملكُ

يا أهلَ مصرَ قد نصحتُ لَكُمْ ... تَهَوَّدُوا، قد تهودَ الفَلَكُ

وفي عهد «المستنصر بالله» انحسر سلطان الفاطميين عن بلاد الشام باستيلاء السلاجقة عليها، وزالت دولتهم في جزيرة صقلية باستيلاء النورمان عليها بزعامة (روجر النورماندي) سنة (٤٦١هـ)، وعَمَّ الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، إذ امتد ثماني سنين (٤٤٦ ـ ٤٥٤هـ)، واقترنت هذه الشدة التي اصطلح المؤرخون تسميتها بسنين الشدة العظمى بقيام الحروب الأهلية حتى تدارك الأمر بدر الجمالي، والي عكا وقد استدعاه المستنصر سنة (٤٦٦هـ)، فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح البلاد، وتزوج «المستنصر» ابنته وولدت له ابنه «المستعلي».

ولما توفي «المستنصر» سنة (٤٨٧هـ) بعد حكم دام ستين سنة ادعى الخلافة ابنه «نزار» وكان أبوه قد عهد بها إليه، ولكن الأفضل بن بدر الجمالي، الذي خلف أباه في قيادة الجيش، قدم عليه أخاه «المستعلي» وهو ابن أخته، وتم ذلك بقتل «نزار»، وبقتله افترقت الإسماعيلية إلى فرقتين: فرقة المستعلية، وفرقة النزارية. وفي عهد «المستعلي» بدأت الحروب الصليبية على بلاد الشام واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة (٤٩٣هـ)، وقد أعقب «المستعلي» خلفاء منهم «المخلوع» ومنهم «المقتول» إلى أن انقضى عهد الدولة الفاطمية سنة (٥٦٤هـ) على يد «صلاح الدين الأيوبي» وقيام الدولة الأيوبية.

■ دولتا الأدارسة والأغالبة:

لما اتفق العلويون والعباسيون، وكلاهما من بني هاشم، على حرب بني أمية وانتزاع الخلافة منهم، كان العلويون يقدرون أن الخلافة ستؤول إليهم، لأنهم أهل بيت النبي ﷺ. غير أن العباسيين، سارعوا، بعد هزيمة «مروان بن محمد» آخر خليفة أموي في وقعة (الزاب) سنة (١٣١هـ)، إلى مبايعة «أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس» الملقب بالسفاح، فخاب بذلك أمل العلويين وعادوا إلى المدينة داعين لأنفسهم ورافضين الاعتراف بالخليفة العباسي. وفي عهد الخليفة «أبي جعفر المنصور»، قام في المدينة زعيم العلويين «محمد (النفس الزكية) بن عبد الله (المحض) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب» يدعو لنفسه بالخلافة، وقد أراد «المنصور» أن يتفادى قتاله، فكاتبه وتبادل وإياه الكتب والرسائل، وفيها كان كل منهما يدلي بالحجج المؤيدة لحقه في الخلافة. ولما لم تنته المكاتبة إلى شيء، أرسل المنصور جيشا فقاتل «محمداً (النفس الزكية)» في معركة انتهت بقتل «محمد» سنة (١٤٥هـ). وفي عام (١٦٩هـ) ثار

على «المنصور» علوي آخر هو «الحسين بن علي بن الحسن المثلث ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب»، ومعه عماه «إدريس ويحيى ابني عبد الله المحض». فأرسل «المنصور» جيشاً لقتاله، وجرت بين الفريقين معركة في موقع قرب المدينة يعرف بـ(فخ)، وفيها قتل «الحسين» وتمكن عمه «إدريس بن محمد (النفس الزكية)» من الهرب. توجه «إدريس» إلى المغرب الأقصى ونزل على قبيلة من البربر تدعى (أوربه) فعرفها بنفسه، فبايعته ودخلت في طاعته قبائل أخرى، وخلع «إدريس» طاعة بني العباس وأنشأ مدينة (فاس) واتخذها عاصمة له وفيها أقام سنة (١٧٢هـ) دولة علوية مستقلة عرفت بدولة الأدارسة. ولما استقر إدريس في ملكه جند من قبائل البربر جيشا فغزا المغرب الأوسط وضمه إلى مملكته وخشي هارون الرشيد أن تمتد أطماعه فيستولي على المغرب الأدنى، وكان يعرف باسم (إفريقية) فأراد أن يقيم حكماً ثابتاً يناط برجل يستقل به ليدفع عنه خطر الأدارسة، فوقع اختياره على «إبراهيم بن الأغلب»، فولاه على إفريقية سنة (١٨٤هـ)، على أن تكون ولايته وراثية في مقابل مبلغ من المال يدفعه إلى الخليفة، وكانت (القيروان) عاصمة للولاية، فبنى «إبراهيم بن الأغلب» مدينة دعاها (العباسية) اتخذها عاصمة لدولته التي عرفت بدولة الأغالبة. وفي عهد حفيده «زيادة الله الأول» تم الاستيلاء على جزيرة (صقلية) بقيادة الفقيه الكبير «أسد بن الفرات» وضمت إلى دولة الأغالبة. وقد امتد حكم الدولة الإدريسية والدولة الأغلبية حتى قيام الدولة الفاطمية.

- **الدولة الأتابكية:**

تنتسب هذه الدولة إلى «عماد الدين زنكي بن آقسنقر» وكان (أتابك) ـ أي نائب ـ السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه» سلطان العراق، وفي عام (٥١٦هـ) ولاه السلطان على الموصل فأقام فيها دولة عرفت بالدولة الأتابكية. وفي عام (٥٢١هـ) استولى «عماد الدين» على حلب وأزال الدولة الأرتقية.

وفي عام (٥٤١هـ) اغتال «عماد الدين زنكي» في قلعة جعبر بعض غلمانه فانقسمت الدولة الأتابكية إلى دولتين:

دولة في الموصل. . :

ودولة في حلب. . .

أما دولة الموصل فخلفه فيها ابنه «سيف الدين غازي الأول» وتعاقب عليها من بعده أبناؤه حتى انقضى عهدها باستيلاء المغول عليها سنة (٦٦٠هـ).

وأما دولة حلب فخلفه فيها ابنه «نور الدين محمود». وفي عام (٥٤٩هـ) استولى «نور الدين» على دمشق وضمت إليه بلاد الشام. ولما توفي سنة (٥٦٩هـ) خلفه فيها ابنه «الصالح إسماعيل». وفي عام (٥٧٩هـ) تولى «صلاح الدين الأيوبي» ضمها إلى الدولة الأيوبية التي أقامها في مصر فأضحت معها دولة واحدة.

■ **الدولة العامرية:**

١ ـ قضى «ابن أبي عامر» على نفوذ (صبح) أم الخليفة، كما قضى على نفوذ الوزير «عثمان المصحفي» وحجب الخليفة عن الناس، وألزمه الإقامة في القصر وأعد له ما يلهي طفلاً في مثل سنة ويصرفه عن التفكير في غير ما أريد له وفرض عليه. وقد أراد «ابن أبي عامر» أن يبني لنفسه مجداً يزاحم به مجد الخلفاء، فخاض حروباً بلغت ـ كما يقول المؤرخون ـ خمسين وقعة، كتب له النصر في أكثرها، ومن أجل ذلك تلقب بـ«المنصور»، ومات متأثراً بجراح أصابته في آخر حروبه. كذلك أراد أن يطاول الخلفاء في العمران فبنى قصر (الزاهرة) لينافس به قصر (الزهراء). غير أن ما كسب من حروب وما أقام من عمران كان من نتائجه خسران كثير من الرجال، فقدت البلاد بهم اليد العاملة في الصناعة والزراعة، كما أرهقت الحروب خزانة الدولة، وكذلك المكلفين وأدت إلى تحالف ملوك الفرنجة ووضع خطة لقتال المسلمين. وقد ظهر أثر هذه الخطة بعد وفاة «ابن أبي عامر» وقيام دول الطوائف، وذلك بإثارة الضغائن بين ملوك تلك الدول واستنجادهم بملوك وأمراء الفرنجة، الذين كانوا يفرضون على من أعانوه مبالغ كبيرة، كثيراً ما كان يعجز عن أدائها، وينتهي الأمر بالاستيلاء على مملكته وطرده منها.

ـ توفي «ابن أبي عامر (المنصور)» بعد سبع وعشرين عاماً من تغلبه على الحكم، فخلفه في الحجابة ابنه «عبد الملك»، وتلقب بلقب «المظفر بالله»، وسار في تدبير الملك سيرة أبيه. وظل الخليفة «هشام» محجوباً عن الناس، وقد بلغ من العمر سبعاً وثلاثين عاماً.

٣ ـ توفي عبد الملك سنة (٣٩٩هـ) فخلفه في الحجابة أخوه «عبد الرحمن» الملقب بلقب (شنجول) فأخرج «هشاماً» من معتقله وأكرهه أن يوليه الخلافة من بعده، فكتب له بذلك عهداً. ولما علم أهل قرطبة بالأمر ثاروا على «عبد الرحمن» واجتمعوا على أموي يدعى «محمد بن هشام» من أحفاد «عبد الرحمن الناصر» وبايعوه وتلقب بـ«محمد المهدي» وتمكن من قتل (شنجول) وبه انتهت دولة بني عامر. عودة الخلافة إلى بني أمية «محمد المهدي وسليمان المستعين».

٤ ـ حجز «محمد المهدي» «هشاماً المؤيد» وادعى أنه مات، وأعلن للناس وفاته وأخرج لهم جثة شخص شبيه به وصلى عليها ودفنها باحتفال. لم يلبث أن ثار على «محمد المهدي» ابن عم له يدعى «سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر» ونازعه الخلافة، والتف حوله البربر. وقد استعان كل منهما بملك من ملوك الفرنجة، وفي الحرب تمت الغلبة لـ«سليمان بن الحكم» وقتل «محمد (المهدي)» ودخل «سليمان» إلى قرطبة وكان ذلك سنة (٤٠٠ ـ ٤٠٢هـ) وأحضر «هشاماً (المؤيد)» وكان حياً، فتنازل لـ«سليمان» عن الخلافة وبايعه وتلقب بلقب «المستعين بالله». واختفى بعد ذلك «المؤيد» وقيل أن المستعين قتله. وقد أقطع «المستعين» زعماء البربر الذين نصروه إقطاعات في جنوب الأندلس وشرقه، فأعلن بقية الولاة استقلالهم وانفصالهم عن قرطبة وبذلك انفرط عقد الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دويلات مستقلة لطوائف من العرب والبربر والصقالبة، يحكم كل طائفة منها حكام سلكوا مسلك الملوك وعرفوا بملوك الطوائف وفقدت قرطبة مكانتها كعاصمة واستوت مع دول الطوائف، وتعاقب عليها حكام من أصول عربية منهم أدارسة من بني حمود ومنهم من بني جهور ومنهم بقايا من بني أمية. قيام دولة بني حمود في قرطبة «علي بن حمود الإدريسي والقاسم بن حمود ويحيى بن علي بن حمود».

٥ ـ ساءت سيرة «المستعين بالله» فثار أهل قرطبة عليه واستنجدوا بالأمير «علي بن حمود الإدريسي الهاشمي»، أمير (سبتة)، فاستجاب لهم وتوجه سنة (٤٠٧هـ) مع جيش من البربر، فدخل قرطبة وقتل «المستعين» ولقب نفسه (المتوكل على الله الناصر لدين الله)، وكان شديداً على مماليكه فاغتالوه سنة (٤٠٨هـ)،

فخلفه أخوه «القاسم بن حمود»، وتلقب بلقب (المأمون). وفي سنة (٤١٣هـ) ثار عليه البربر وخلعوه وولوا ابن أخيه «يحيى بن علي الإدريسي» وتلقب بلقب (المعتلي بالله). ولم يلبث أن خلعه البربر وأعادوا عمه «القاسم بن حمود» فبايعوه وتلقب بلقب (أمير المؤمنين) ثم إنهم خلعوا «القاسم» وأعادوا ابن أخيه «يحيى» للمرة الثانية.

٦ ـ خلع أهل قرطبة «يحيى بن علي» وبويع أموي يدعى «عبد الرحمن (الخامس) ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر» خليفة وتلقب بلقب (المستظهر بالله)، ولم يلبث سوى شهر ونصف من عام (٤١٣هـ) حتى خلع وبويع أموي يدعى «محمد (الثالث) ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر»، وتلقب بلقب (المستكفي بالله)، وبعد أربع سنوات من ولايته خلع وبويع أموي آخر يدعى «هشاماً (الثالث) ابن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر» وتلقب بلقب (المعتد بالله) وقد ضاق أهل قرطبة بسوء تصرفه فخلعوه وأخرجوه من قرطبة سنة (٤٢٢هـ) وبه انقرضت دولة بني أمية في الأندلس.

قيام دولة بني جهور في قرطبة: بعد خلع «المعتد بالله» ولى أهل قرطبة عليهم الوزير «أبا الحزم بن جهور»، فقام بتدبير الأمور إلى أن مات سنة (٤٣٥هـ) وخلفه ابنه «أبو الوليد محمد بن جهور»، وما زال على قرطبة حتى خلعه أهلها سنة (٤٦٢هـ) فأعقبه ابنه «عبد الملك»، فأساء السيرة فأخرجوه عنها. ضم قرطبة إلى إشبيلية بعد خلع «عبد الملك بن جهور» سنة (٤٦٨هـ) زحف «المعتمد بن عباد» أمير أشبيلية على قرطبة فملكها وزالت دولة بني جهور ومعها دولة قرطبة.

- **دولة السلاجقة:**

تنتسب هذه الدولة إلى «سلجوق بن دقاق»، وهو زعيم دولة تركية كبيرة كانت تقطن فيما وراء النهرين (سيحون وجيحون) في منطقة واسعة تعرف بتركستان، أي بلاد الترك. وفي عام (٤٢٩هـ) آلت زعامة هذه القبيلة إلى (طغرل بك) حفيد (سلجوق) فاجتاز بقبيلته منطقة ما بين النهرين متوجهاً نحو المشرق وانتهز انشغال الغزنويين بحروب أنهكتهم، فاستولى على خراسان، والري وهمذان وأزال الحكم الغزنوي عنها، وأقام فيها دولة لقومه عرفت بدولة السلاجقة. وفي عام (٤٣٢هـ)

استولى على جرجان وطبرستان وامتدت دولته إلى قزوين. وفي عام (٤٤٦هـ) استنصره الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ودعاه إلى بغداد لينقذه من وزيره أرسلان البساسيري، وكان قد استولى على السلطة واستبد بها وملك أمر العراق وخطب لـ«المستنصر الفاطمي» صاحب مصر، فاستجاب «طغرل بك» لدعوته وزحف إلى بغداد وقضى على «البساسيري» وأنهى الحكم البويهي فيها، ثم استولى على الموصل وأذربيجان وسنجار وتمت له السيطرة على البلاد الإيرانية من شاطئ نهر سيحون إلى ساحل البحر الأسود ومن شواطئ بحيرة خوارزم إلى بحر عمان. وفي عام (٤٥٥هـ) توفي «طغرل بك» وآلت خلافته إلى ابن أخيه «ألب أرسلان» فتابع مسيرة عمه، ووجه عام (٤٦٣هـ) جيشاً بقيادة قائده (أتسز) إلى بلاد الشام فاستولى على دمشق وتوجه سنة (٤٦٤هـ) على رأس جيش لفتح الأناضول فاستولى على أرمينية بعد معركة ضارية مشهورة مع الروم جرت في (ملاذكرد) وهزم جيش الروم وأسر مليكه رومانوس الرابع. وفي عام (٤٦٥هـ) أقدم باطني إسماعيلي على اغتيال (ألب أرسلان) فخلفه ابنه «ملكشاه» وفي عهده أخذت الدولة السلجوقية في التقلص بعد انقسامها إلى دولة موزعة بين أبناء البيت السلجوقي، فدولة في خراسان، ودولة في الشام ودولة في بلاد الروم. أما دولة السلاجقة في خراسان فقد آلت إلى «سنجر بن ألب أرسلان» وانتهت بوفاته سنة (٥٥٢هـ) باستيلاء دولة خوارزم عليها.

وأما دولة السلاجقة في العراق فقد آلت إلى محمد بن ملكشاه ومن بعده إلى ابنه «محمود» وتوارثها من بعده أبناؤه ثم زالت باستيلاء دولة خوارزم عليها سنة (٥٧٣هـ) في عهد آخر ملوكها «ركن الدين طغرل (الثاني)». وأما دولة السلاجقة في الشام فقد آلت إلى «(تتش) بن ملكشاه» وانقسمت بعد مقتله سنة (٤٨٨هـ) بين ولديه: «دقاق» و«رضوان»، فاختص «دقاق» بدمشق واختص «رضوان» بحلب، وانقضت دولة حلب بعد وفاة آخر ملوكها سلطان «شاه بن رضوان» باستيلاء «نجم الدين إيلغازي» صاحب ماردين عليها سنة (٥١١هـ) بدعوة من أهلها، ثم بقيام «عماد الدين زنكي» صاحب الموصل بالاستيلاء عليها سنة (٥٢١هـ)، وبعد اغتياله سنة (٥٤١هـ) قيام ابنه «نور الدين محمود» خلفاً له فيها. وانقضت دولة دمشق وصاحبها «دقاق بن تتش» سنة (٤٩٧هـ) باستيلاء أتابكه (نائبه) القائد طغتكين على السلطة، وبوفاته سنة (٥٢٢هـ) قيام ابنه «تاج الدولة بوري» خلفاً له، وقد نسبت

الدولة إليه فعرفت بالدولة البورية وامتدت أيامها حتى استولى عليها «نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي» سنة (٥٤٩هـ)، وضمها إلى حلب وجعلها عاصمة الدولة الأتابكية في بلاد الشام. وأما دولة السلاجقة في بلاد الروم، فقد قامت بزعامة «سليمان بن قتلمش»، من أحفاد سلجوق ومن أبناء عمومة «ألب أرسلان» فقد تزعم «سليمان» عصابات تركية في أعقاب وقعة (ملاذكرد) وأخذ يطارد فلول جيش الروم ويستولي على الأقاليم التي يجتاحها حتى إذا اقترب من سواحل بحر مرمرة سنة (٤٧٠هـ) استقر في مدينة (نيقية) ـ أزنيك الحالية ـ وأقام فيها دولة سلجوقية. وفي عام (٤٧٧هـ) حاول «سليمان» الاستيلاء على بلاد الشام واستخلاصها من (تتش) بن ملكشاه في معركة جرت بينهما فلم يتمكن من الفرار وقتل فيها فخلفه ابنه داود وتلقب بلقب (قليج أرسلان). ولما قدمت الحملة الصليبية الأولى واقتحمت القسطنطينية سنة (٤٩٠هـ)، ثم اجتازتها إلى آسية، اضطر «قليج» أرسلان إلى التخلي عن (نيقية) وانسحب مع قومه إلى الجنوب الشرقي من الأناضول واتخذ من مدينة (قونية) عاصمة لملكه. وفي عام (٥٠٠هـ) يتوفى «قليج أرسلان»،فتتوزع أقاليم دولته بين أبنائه وإخوته وتستحيل إلى مجموعة دويلات اتصلت بينها الحروب. إلى أن قامت الدولة العثمانية سنة (٦٩٩هـ) فانطوت تحت جناحها.

جوانب الحضارة
في العصر العباسي الثاني

رغم المشاكل السياسية العديدة التي شهدتها دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني فإن اللافت للنظر أن هذه الحقبة تُعدّ أخصب عصور التاريخ الإسلامي في عطائها الحضاري المتعدد الجوانب.

وسنكتفي هنا بتقديم نبذة مختصرة عن أهم هذه الجوانب:

١ ـ الجانب الثقافي:

نشطت حركة التأليف في فروع العلم المختلفة نشاطاً ملحوظاً طوال هذه الفترة وقدمت دولة الخلافة المترامية الأطراف علماء أفذاذاً يعترف لهم العالم كله ـ حتى يومنا هذا ـ بالفضل والمكانة.

ففي مجال **علوم الحديث**: يتألق اسم عمدة المحدِّثين الإمام البخاري المتوفى سنة (٢٥٦هـ = ٨٧٠م) هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من أعلام المحدثين لعل أبرزهم الإمام مسلم المتوفى سنة (٢٦١هـ = ٨٧٥م)، وأبو داود المتوفى سنة (٢٧٥هـ = ٨٨٨م)، وابن ماجة المتوفى سنة (٢٧٣هـ = ٨٨٦م)، والترمذي المتوفى سنة (٢٧٩هـ = ٨٩٢م)، والنسائي المتوفى سنة (٣٠٣هـ = ٩١٥م)، وهؤلاء هم أصحاب الصحاح المعروفون.

وقد برز من غير أصحاب الصحاح أيضاً عدد من أئمة المحدثين، من أمثال داود الظاهري المتوفى سنة (٢٧٠هـ = ٨٨٣م)، وأبي الحسن الدَّارَقُطْني المتوفى سنة (٣٨٥هـ = ٩٩٥م)، الذي يصفه ابن كثير بأنه كان «فريد عصره ونسيج وحده وإمام دهره في أسماء الرجال وصناعة التعليل والجرح والتعديل وحسن التصنيف والتأليف واتساع الرواية والإطلاع التام في الدراية». ومن هؤلاء أيضاً الحاكم النيسابورى المتوفى سنة (٤٠٥هـ = ١٠١٤م)، وقد عرف عنه أنه كان من أهل الدين

والأمانة والصيانة والضبط والتجرد والورع، سمع الكثير وطاف الآفاق وصنف الكتب الكبار والصغار.

وفى مجال **العلوم اللغوية**: وجدنا أعلاماً نابهين يضيق عنهم الحصر، ومن هؤلاء محمد بن يزيد المبرِّد صاحب الكامل المتوفى سنة (٢٨٥هـ = ٨٩٨م)، وقد كان إمام النحاة في عصره، ومن النحاة المشهورين أيضاً الزَّجَّاج المتوفى سنة (٣١١هـ = ٩٢٣م)، وقد احتل عالم اللغة الشهير أبو على الفارسي (المتوفى ببغداد سنة ٣٧٧هـ = ٩٨٧م) مكانة متميزة في بلاط الملك البويهي «عضد الدولة». وقد صنف الفارسي لعضد الدولة كتاب «الإيضاح» و«التكملة» في النحو، وكان عضد الدولة يغدق عليه العطاء ويحيطه بمظاهر التكريم، وكان يقول: «أنا غلام أبي علي في النحو» وممن عاصروا الفارسي من أعلام اللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى ببغداد سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٩م)، وقد وليّ القضاء ببغداد، وكان السيرافي من أعلم الناس بنحو البصريين، ومن بين مؤلفاته كتاب «أخبار النحويين البصريين» وكتاب «الوقف والابتداء». يقول عنه ابن خلكان: «كان الناس يشتغلون عليه بعدة فنون: القرآن الكريم والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي».

ويبرز أيضاً من بين علماء اللغة في القرن (٤هـ = ١٠م) ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا) المتوفى سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) على أشهر الأقوال. ومن كتبه الذائعة الصيت كتاب «المجمل» في اللغة. وقد كان ابن فارس مقيماً بهمذان، وله رسائل أدبية أنيقة وأشعار رقيقة.

على أننا لا نستطيع في هذا السياق أن نغفل اسم عالم يُعَدُّ من أعظم علماء اللغة، لا في العصر العباسي الثاني فحسب؛ بل على امتداد العصور الإسلامية كلها، وهو «أبو الفتح عثمان بن جني» الذي ولد بالموصل وتوفى ببغداد سنة (٣٩٢هـ = ١٠٠٢م). ومن بين كتبه الذائعة الشهرة الزاخرة بالقيمة في مجال اللغة كتاب «الخصائص».

وله أيضاً «سر صناعة الإعراب»، و«المذكر والمؤنث»، و«المقصور والممدود»، «واللمع» وغير ذلك. وقد شرح ابن جني ديوان المتنبي وكان من

المعجبين بشعره. وكان ابن جني صاحب حس أدبي مرهف، وقد انعكس ذلك على كتاباته العلمية التي اتسم أسلوبها بالجمال الأخَّاذ فضلاً عن الدقة البالغة.

وفى مجال الأدب - إبداعاً وتأليفاً - شهد هذا العصر نهضة تأخذ بالألباب، فقد لمع فيه كوكبة من أعظم شعراء العربية، نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر - البحتري شاعر الخليفة المتوكل المتوفى سنة (٢٨٤هـ = ٨٩٧م)، وقد اشتهر بلغته الموسيقية العذبة ووصفه الرائع؛ وابن الرومي المتوفى سنة (٢٨٣هـ = ٨٩٦م)، وقد اشتهر بقدرته على توليد المعاني وابتكار الصور المعبرة؛ والمتنبي المتوفى سنة (٣٥٤هـ = ٩٦٥م) الذي مازال يحتل مكان السبق بين شعراء العربية قديماً وحديثاً، وقد خَصَّ سيف الدولة الحمداني بعيون مدائحه، كما مدح الملك البويهي عضد الدولة، وأمير مصر كافور الإخشيدي وغير هؤلاء من أعيان عصره، ومن أبرز شعراء هذا العصر أيضاً: الشريف الرضي الذي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، كان وثيق الصلة بالخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ = ٩٩١ - ١٠٣١م)، وتوفي ببغداد سنة (٤٠٦هـ = ١٠١٥م)، وعَدَّه بعض النقاد أشعر قريش. يقول عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: «هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أخبر به شاهد عدل، من شعره العالي القِدْح الممتنع عن القَدْح، الذي يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معانٍ يقرب جناها ويبعد مداها».

ويحتل الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري مكانةً مرموقة بين شعراء هذا العصر، وقد ولد في عام (٣٦٣هـ = ٩٧٤م) في معرة النعمان، وهى بلدة صغيرة في شمالي الشام بين حلب وحمص وتوفى في سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م)، أي أنه عاش في فترة النفوذ البويهي وعاصر من خلفاء العباسيين «الطائع لله» و«القادر بالله» و«القائم بأمر الله»، ولأبي العلاء ديوان «سقط الزند» و«لزوم ما لا يلزم» المشهور باسم «اللزوميات»، وسمي بذلك لأنه ألزم نفسه فيه بما لا تفرضه عليه أصول القافية مما يدل على سعة باعه في اللغة. ويُعَدُّ أبو العلاء إمام الشعراء الذين صبغوا شعرهم بصبغة تأملية فلسفية.

وبجانب أصحاب الإبداع الشعري ظهر مبدعون كثيرون في ميدان **النثر الفني** في العصر العباسي الثاني، ففي مطلع هذا العصر لمع اسم الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر) المتوفى بالبصرة سنة (٢٥٥هـ = ٨٦٩م). والجاحظ إمام المنشئين في تاريخ الأدب العربي بلا جدال.

كان على مذهب المعتزلة وكان موسوعي الثقافة متجدد الفكر، وقد ترك أسلوبه بصمات واضحة على أساليب كثير ممن جاءوا بعده، ومؤلفات الجاحظ عديدة وذائعة، تنمّ عن ذهن ناضج وفكر متدفق، ومن أشهر كتبه: كتاب «الحيوان» و«البيان والتبيين» و«البخلاء».

وله رسائل مختلفة طبعت تحت اسم «رسائل الجاحظ»، وهى تتناول موضوعات شتى.

ومن أبرز الذين تأثروا بالجاحظ وحاولوا أن ينهجوا نهجه أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة (٣٦٠هـ = ٩٧١م)، ولتمكنه في فن الإنشاء عرف باسم «الجاحظ الثاني»، وهو الذي قيلت فيه العبارة المشهورة: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد»، وعبد الحميد هنا هو: عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، عاش ابن العميد في ظل البويهيين وعمل وزيراً لركن الدولة ـ الحسن بن بويه ـ وكان ـ كما يصفه ابن خلكان ـ «متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسُّل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه». ويصفه ابن الأثير بأنه كان من محاسن الدنيا، قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من حسن التدبير وسياسة الملك، والكتابة التي أتى فيها بكل بديع».

وقد صحب ابن العميد وتأثر به في طرائقه «أبو القاسم إسماعيل بن عباد» المعروف بالصاحب بن عباد. ولقب بالصاحب لصحبته لابن العميد، وكان يقال له أحياناً صاحب ابن العميد. وقد تولى الصاحب بن عباد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ثم لأخيه فخر الدولة، وفضلاً عن براعة الصاحب في فن الإنشاء ـ كأستاذه ابن العميد ـ فقد كان محباً للعلم ذواقة للأدب، كما كان شاعراً جيِّد النظم. والجدير بالذكر هنا أن كلا من ابن العميد والصاحب بن عباد كان له مجلس يحفل بوجوه الشعراء والعلماء والمفكرين، وكان من بين المترددين على مجلس ابن

العميد أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر، وقد مدحه بقصيدة من عيون شعره، وتوفي (الصاحب بن عباد) بمدينة الري في سنة (٣٨٥هـ = ٩٩٥م).

ومن الذين تميَّزوا في مجال **النثر الفني** بديع الزمان الهمذاني (وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى) الذي سكن (هراة) من بلاد خراسان وتُوفِّي بها في سنة (٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) وكان ذلك في خلافة «القادر بالله». وقد كتب بديع الزمان مقاماته الذائعة الصيت وأبدع فيها، وهو أول من استوى على يده هذا الفن في اللغة العربية. وقد حذا حذوه ووصل بهذا الفن إلى مداه «أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري» الذي اعترف في صدر مقاماته بأنه جعل مقامات البديع مثالاً له. وقد توفى الحريري في حدود سنة (٥١٦هـ = ١١٢٢م) بالبصرة إبان فترة نفوذ السلاجقة، وذلك في خلافة المسترشد بالله.

والملاحظ أن شهرة مقامات الحريري بلغت من الانتشار حداً تتضاءل بجانبه شهرة مقامات الرائد الأول بديع الزمان. وتكشف مقامات الحريري عن البراعة الكبيرة لصاحبها في التصرف في اللغة وتطويعها لما يريده من معان وأفكار، وهى إحدى الوسائل المهمة لمن يبحثون عن إثراء ملكاتهم اللغوية.

وبجانب الإبداع الأدبي شعراً ونثراً تميَّز العصر العباسي الثاني بظهور الكثير من **الموسوعات الأدبية** التي تُعَدّ مراجع أساسية لطلاب المعرفة في هذا المجال، ونكتفي هنا بذكر أمثلة لأبرز هذه الموسوعات، وقد لمع في هذا الجانب ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) الذي ولد بالكوفة وتثقف بها وسكن بغداد زمناً ولكنه نسب إلى الدينور لأنه تولى قضاءها، وقد توفى ابن قتيبة في سنة (٢٧٦هـ = ٨٨٩م) في خلافة «المعتمد على الله»، وقد خلّف لنا ابن قتيبة عدداً من الموسوعات الأدبية المهمة يأتي على رأسها كتاب «عيون الأخبار»، وكتاب «الشعر والشعراء»، ومن كتبه الأدبية المهمة أيضاً كتاب «أدب الكاتب» الذي يتحدث فيه عما يحتاج إليه الأديب من فنون المعرفة ليمارس صنعة الكتابة على الوجه الأمثل.

ويُعَدُّ أبو الفرج الأصفهاني أبرز أصحاب الموسوعات الأدبية في هذا العصر. وقد كان ملازماً للوزير المشهور أبي محمد حسن بن محمد المهلب وزير معز الدولة أحمد بن بويه، وكان المهلبي بصحبة معز الدولة عند انتقاله إلى بغداد، كما

ذكرنا ذلك في موضعه، ومما يحفظه التاريخ للمهلبي أنه كان محباً للأدب مقرِّباً لأهله، وكان يعرف لذوى القرائح الجيدة أقدارهم ويغدق عليهم من كرمه ورعايته، ومن هنا قرب أبا الفرج الأصفهاني ورعى مكانته. ولاشك أن موسوعة «الأغاني» للأصفهاني تعد من أهم الموسوعات الأدبية وأكثرها انتشاراً وشمولاً فيما يختص بتاريخ الأدب العربي والثقافة العربية حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجري. وقد توفي أبو الفرج الأصفهاني في سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٧م).

ويتميز أيضاً بين أصحاب الموسوعات الأدبية «أبو منصور الثعالبي» (وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، ولد بنيسابور في سنة (٣٥٠هـ = ٩٦١م)، وتوفى في سنة (٤٢٩هـ = ١٠٣٨م)، أي أنه عاش حياته كلها في فترة نفوذ البويهيين، وشهدت فترة تفتحه الأدبي خلافة «الطائع لله» و«القادر بالله»، وتوفي في خلافة «القائم بأمر الله»، وكان الثعالبي غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات العلمية، ولكن يقف على رأس مؤلفاته جميعاً كتابه الموسوعي الضخم «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها كما يقول ابن خلكان، وهو من أربعة مجلدات صرف فيها جل اهتمامه لشعراء القرن (٤هـ = ١٠م) ورتبهم على أوطانهم، فقد تناول في أبواب خاصة شعراء الشام ومصر والمغرب والموصل والبصرة وبغداد وأصفهان والجبل وفارس والأهواز وجرجان، وتحدث عن الدولة السامانية وشعرائها وعن خوارزم، وتحدث أيضاً عن بنى بويه وشعرائهم وكتابهم، وأسهب في الحديث عن ابن العميد والصاحب بن عباد، كما تحدث عن بلاط سيف الدولة وشعرائه وكتّابه، ولاشك أن يتيمة الدهر تعد إحدى الموسوعات الأدبية الأساسية في تاريخ الأدب العربي، ولا تزال حتى يومنا هذا مصدراً لا غنى عنه للباحثين في الحياة الأدبية في القرن (٤هـ = ١٠م).

ولم تكن أنشطة **البحث التاريخي** بأقل حظاً من الأنشطة الأدبية في دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني، وهذا مجال يطول فيه الكلام ويتشعب، ولا سبيل إلى استقصاء الحديث فيه، ولكننا نكتفي بتقديم بعض النماذج لأبرز المؤرخين وأهم أعمالهم التاريخية، ويقف شامخاً بين أعلام المؤرخين في صدر العصر العباسي الثاني أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ =

٩٢٢م) في خلافة «المقتدر بالله»، وقد عاش الطبري في فترة التحول المهمة التي انتقلت فيها الخلافة العباسية من عصرها الأول ـ عصر القوة السياسية المركزية ـ إلى عصرها الثاني الذي بدأت فيه السلطة المركزية تضعف ضعفاً ملحوظاً، وهكذا شهد الطبري معظم عصر نفوذ الأتراك، وقد ولد في آمل بطبرستان في سنة (٢٢٤هـ = ٨٣٩م) وأخذته الرحلة في طلب العلم إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي كالعراق والشام ومصر، ثم استقر به المقام أخيراً في بغداد وبها مات ودفن، وقد ترك لنا الطبري موسوعته التاريخية الذائعة الصيت وهي: «تاريخ الأمم والملوك» المشهورة باسم «تاريخ الطبري»، في عشرة مجلدات، وتناول الطبري في هذه الموسوعة الضخمة تاريخ ما قبل الإسلام منذ بدء الخليقة بقدر من الاختصار في المجلد الأول وبعض الثاني، ثم جاء علاجه المفصل للأحداث منذ بدأ يتناول سيرة الرسول ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين، وما تلا ذلك من تاريخ الدولة الأموية والعباسية حتى عصره، وقد توقف الطبري بتاريخه عند أحداث سنة (٣٠٢هـ = ٩١٤م) في خلافة «المقتدر»، وتاريخ الطبري منجم غنى بالمعلومات حافل بالروايات المختلفة التي تقدم المادة الأساسية للباحث، وهناك إجماع في الشرق والغرب على أن هذا التاريخ يعدُّ عمدة الباحثين في التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

ومن أعلام المؤرخين الذين ظهروا في القرن (٣هـ = ٩م) أيضاً ـ بجانب الطبري ـ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) المتوفى سنة (٢٧٦هـ = ٨٨٩م).

وقد أشرنا إليه قبل ذلك عند حديثنا عن الموسوعات الأدبية، ومن أبرز الأعمال التاريخية التي تركها لنا ابن قتيبة كتاب «المعارف»، وينسب إليه أيضاً كتاب «الإمامة والسياسة».

كما ظهر اليعقوبي أيضاً، وهو أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح المتوفى نحو سنة (٢٧٨هـ = ٨٩١م)، وكتابه المعروف ب «تاريخ اليعقوبي» من المصادر التاريخية الأساسية في تلك الفترة، وهو يقع في مجلدين، يتناول المجلد الأول التاريخ القديم حتى ظهور الإسلام، ويتناول الثاني تاريخ الإسلام حتى سنة (٢٥٩هـ = ٨٧٣م) فهو يغطى ثلاث سنين من خلافة «المعتمد على الله»، وبجانب التأليف

التاريخي ألّف اليعقوبيَ في الجغرافيا كتاباً ذائعاً هو «البلدان» الذي يعد من أقدم مصنفات التراث الجغرافي العربي.

وقد برز أيضاً من مؤرخي تلك الفترة ـ وهي فترة نفوذ الأتراك في العصر العباسي الثاني ـ أحمد بن يحيى البلاذري وأبو حنيفة الدينوري.

أما البلاذري فقد كان مقرباً للخليفتين «المتوكل» و«المستعين»، وتوفى في حدود سنة (٢٧٩هـ = ٨٩٢م)، ويعد كتابه «فتوح البلدان» من أوثق الكتب التي تحدثت عن تاريخ الفتوح الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى عصره، وهو يتميز بدقته في الأسلوب وموضوعيته في العرض والبعد عن الحشو، وهو من بين المصادر التي تحتل قيمة خاصة في هذا الجانب، وللبلاذرى كتاب آخر معروف هو «أنساب الأشراف»، وهو يقدم مادة تاريخية غزيرة في صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي الأول من خلال أنساب الرجال الذين يتناولهم بالبحث.

أما أبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة (٢٨٢هـ = ٨٩٥م) فقد كان موسوعي المعرفة، برع في علوم كثيرة كالنحو واللغة والهندسة والفلك وغير ذلك، ولكن الكتاب الذي اشتهر به الدينوري هو كتابه التاريخي المعروف باسم «الأخبار الطوال» الذي يتناول فيه التاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى وفاة الخليفة المعتصم سنة (٢٢٧هـ = ٨٤٢م)، مع مقدمة مختصرة عن التاريخ القديم.

وقد استمرت حركة التأليف التاريخي على نشاطها وازدهارها طوال مراحل العصر العباسي الثاني، ومن أبرز المؤرخين الذين شهدوا بداية مرحلة النفوذ البويهي على بن الحسين المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ = ٩٥٧م)، ومع أن المسعودي نشأ في بغداد فقد كان دائم الترحل في طلب العلم، وهو يقدِّم نموذجاً للعالم الذي جعل العلم ضالَّته، فهو ينشده لكل ما أوتى من حول وما وسعه من صبر؛ فقد ذهب إلى الهند والملتان وسرنديب (سيلان) والصين، فضلاً عن مراكز العلم الشهيرة في أرجاء العالم الإسلامي، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وقد تناول فيه تاريخ الأمم القديمة، ثم تناول تاريخ الإسلام منذ ظهوره حتى خلافة «المطيع لله»، وهو أول الخلفاء العباسيين في العصر البويهي، ومن بين الكتب التاريخية الذائعة للمسعودي أيضاً كتاب «التنبيه

والإشراف»، وهو محاولة منه لتقديم كتاب تاريخي مختصر يضم خلاصة ما كتب، وهو يحتوى على معلومات مهمة من كتب أخرى للمسعودي لم تصل إلينا.

ومن بين المؤرخين المتميِّزين في فترة النفوذ البويهي أيضاً الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م)، وهو «أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت»، وقد عاش في بغداد التي يُنسَب إليها ومات بها، ولكنه رحل طلباً للعلم إلى عدة مراكز علمية بارزة كالبصرة والكوفة ونيسابور وحلب وبيت المقدس وغيرها، وهو يتميز بغزارة إنتاجه وتنوع اهتماماته العلمية؛ حيث ألَّف في فروع مختلفة من العلم كالتاريخ والفقه والحديث والنحو والأدب وغيرها، ومعظم مؤلفاته لم تصل إلينا، ولكن موسوعته الضخمة المعروفة باسم «تاريخ بغداد» وصلت إلينا وهى التي أكسبته شهرة واسعة، وهى تاريخ شامل لبغداد من حيث نشأتها وأحيائها وقصورها ومختلف معالمها، فضلاً عن تراجم أعلامها من رجال السياسة والعلم والأدب وغير ذلك، ومن هنا تعد هذه الموسوعة مصدراً لا غنى عنه للباحثين في تاريخ الخلافة العباسية منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقى.

وقد لمع عدد آخر من المؤرخين في المراحل المتأخرة من العصر العباسي الثاني، لعل أبرزهم عز الدين بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ = ١٢٣٣م)، وهو صاحب الموسوعة التاريخية الضخمة المعروفة باسم «الكامل في التاريخ»، وتقع في اثني عشر مجلداً، وقد حذا فيها حذو الطبري في تاريخه، وتوقف في روايته التاريخية عند أحداث سنة (٦٢٨هـ = ١٢٣١م).

وقد شهد ابن الأثير نهاية فترة النفوذ السلجوقي وعاش شطراً من حياته في فترة ما بعد السلاجقة، وعاصر مرحلة مهمة في تطور الحروب الصليبية إبّان سلطنة صلاح الدين الأيوبي، فكتابه إذن من بين المصادر الأساسية في تاريخ الحروب الصليبية، ويمكننا أن نقول إن موسوعة الكامل في التاريخ لابن الأثير تحتل بين مصادر التاريخ الإسلامي مكانة لا يسبقها إلا موسوعة تاريخ الطبري، ولابن الأثير مؤلفات أخرى في غاية الأهمية لعل أبرزها «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، وهو موسوعة من سبعة مجلدات يتناول فيها تراجم صحابة رسول الله ﷺ.

ونستطيع أن نمضي طويلاً في تناولنا لمختلف جوانب النهضة الثقافية في دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني، وهى جوانب لا يتسع المجال للحديث التفصيلي عنها هنا، ولكننا نكتفي بالقول بأن هذه النهضة الثقافية غطت كل مظاهر المعرفة والفن التي عُرفت في ذلك الزمان، فقد شهدت دولة الخلافة العباسية وثبة رائعة في **الثقافة الجغرافية**، وعرف التراث الحضاري العباسي جغرافيين أفذاذاً كاليعقوبي صاحب البلدان، وقد أشرنا إليه، والاصطخري من علماء القرن (٤هـ = ١٠م)، وهو صاحب كتاب «مسالك الممالك»، وابن حوقل والمقدس وهما من علماء القرن (٤هـ = ١٠م) أيضاً، وللأول كتاب «المسالك والممالك»؛ وللثاني كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو من الكتب المتميزة في هذا الفن.

ولعل من أشهر الجغرافيين في دولة الخلافة العباسية ياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) وقد ولد في حماة كما يبدو من نسبته، ولكنه عاش في بغداد، ومعجمه الجغرافي المعروف باسم «معجم البلدان» يُعدُّ من أغزر المصادر مادة في التراث الجغرافي الإسلامي على الإطلاق، وهو يقع في خمسة مجلدات ضخمة.

كما شهد هذا العصر أيضاً نهضة لا تُداني في **الدراسات العقلية والفلسفية والكلامية**، ونبغ في هذا المجال أعلام يحتلون مكانة سامقة في تاريخ الفكر الإنساني كله، فمن بين هؤلاء الفيلسوف الكبير الفارابي المتوفى سنة (٣٣٩هـ = ٩٥٠م) في مطلع العصر البويهى، وهو صاحب كتاب «إحصاء العلوم» وكتاب «السياسة المدنية» وغير ذلك. على أن أبرز هؤلاء هو الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م)، وقد عاش شطراً من حياته في بخارى في ظل الدولة السامانية.

ومن كتبه الفلسفية المعروفة كتاب «الإشارات» وكتاب «الشفاء»، وكتاب «النجاة» وغيرها، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته الطبية الفائقة، وفى مجال الدفاع العقلي عن الإسلام والرد على مناوئيه برز اسم حجة الإسلام «أبى حامد الغزالي» المتوفى سنة (٥٠٥هـ = ١١١١م)، وهو الذي ناضل الفلاسفة وكتب عن تهافتهم كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة»، وقد باشر «الغزالي» التدريس في المدرسة النظامية

ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور، وكتابه «إحياء علوم الدين» من أعظم الكتب التي عرضت الإسلام عرضاً بسيطاً مقنعاً مؤثراً، ونظراً لقوة تأثير هذا الكتاب قال البعض: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء.

وقد حظيت **العلوم الطبية والرياضية والفلكية والطبيعية** بنصيب وافر من العناية والدراسة في هذا العصر الحافل بالعطاء الحضاري.

بل إن فن **الموسيقى** أيضاً وجد له مجالاً من الاهتمام. والملاحظ أن الفلاسفة العظام، أمثال الفارابي وابن سينا، كانوا يحذقون الطب والرياضة والفلك بل والموسيقى أيضاً.

ويعتبر «أبو بكر محمد بن زكريا الرازي» أعظم الأطباء المسلمين في هذا العصر على الإطلاق. وله كتاب «الحاوي» في الطب، الذي يمكن اعتباره عمدة هذا العلم في العصور الوسطى في الشرق والغرب.

وقد حظي الرازي برعاية ملوك الدولة السامانية، وتوفي في حوالي سنة (٣٢٠هـ = ٩٣٢م)، أما «ابن سينا» فقد كتب «القانون» في الطب، وهو الذي كان مع كتاب «الحاوي» للرازي من الأسس المهمة التي اعتمدت عليها أوربا في عصر النهضة.

ويعد هذه اللمحة الموجزة عن أهم جوانب النهضة الثقافية في العصر العباسي الثاني نستطيع أن نقول: إن هذه النهضة كانت متكاملة الجوانب، وهذا هو شأن الحضارات العظيمة، فالحضارة روح تعود بالصحة والعافية على جسد الأمة كله فتتوازن فيه ملامح الاكتمال، وقد كان أبرز ما يميز تلك الفترة هو الرغبة العارمة في العلم والتعطش للمعرفة، ومن هنا وجدنا أصحاب الثقافات الموسوعية الذين أشرنا إلى بعضهم، والملاحظ أن حب العلم والتنافس في سبيله جعل الحكام والأمراء يحتضنونه وينصبون من أنفسهم حماةً له.

وهكذا ظهرت مجالس العلم المعروفة على يد قادة أمراء وجدوا في هذا النشاط سُلَّماً للمجد والسؤدد، والأمثلة على ذلك كثيرة، فهذا سيف الدولة الحمداني يجعل من مجلسه محفلاً للعلماء والأدباء والشعراء، وهذا عضد الدولة البويهي يفعل الشيء نفسه، وفعل ذلك أيضاً السلطان محمود الغز نوى، ونظام

الملك أعظم وزراء السلاجقة، وغيرهم، وكل هذا عاد بالخير العميم على الحركة الثقافية في هذا العصر، فإذا هي تفيض قوة ونشاطاً وتجدداً.

٢ ـ الجانب الاقتصادي والعمراني:

من الطبيعي أن يرتبط الجانب العمراني بالجانب الاقتصادي في الدولة، فلا عمران إلا باقتصاد قوي. وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً ملحوظاً في بعض ممالك الدولة العباسية في العصر الثاني، ولكننا نلاحظ أن السلطة المركزية نفسها لم يعد لها من القوة الاقتصادية ما كان لخلفاء العصر العباسي الأول، وذلك بسبب تحكم الأمراء الذين استأثروا بالنفوذ الحقيقي، ومن هنا نلاحظ أن اقتصاد بعض الإمارات التي كانت تنتمي لدولة الخلافة العباسية من الناحية الشكلية كان أقوى من اقتصاد الخلافة نفسها، بل إن الخليفة في بعض الأحيان كان مجرد موظف تابع لهؤلاء الأمراء الذين يحددون له راتبه ونشاطه.

وقد توافرت مصادر القوة الاقتصادية في دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني، وكان للتقدم العلمي الكبير الذي شهده هذا العصر أثره الملحوظ في تحقيق الازدهار الاقتصادي القائم على أسس علمية صحيحة، وقد لعبت النهضة الزراعية دورها في تحقيق هذا الازدهار الاقتصادي، فقد كانت دولة الخلافة تضم أراضي شاسعة تتسم بالخصوبة والصلاحية لإنتاج شتيا لمحاصيل. وقامت المدارس الزراعية التي انتشرت في أرجاء دولة الخلافة العباسية في ذلك الوقت بجهد علمي كبير في نشر الوعي الزراعي الصحيح، فتعددت المحاصيل وأدخلت أنواع جديدة منها، وزاد إنتاجها نتيجة استعمال الأسمدة المناسبة.

وارتبط بذلك إعادة تطوير نظام الري الذي حول منطقة ما بين النهرين إلى جنة وارفة الظلال، كما ازدهرت فلاحة البساتين القائمة على أسس علمية ازدهاراً كبيراً وانتشرت كل أنواع النباتات والزهور، «وكانت الزهور تزرع حتى في أصغر المنازل»، وارتبط بنمو الثروة الزراعية نمو الثروة الحيوانية، كما ظهرت الصناعات المعتمدة على الإنتاج الزراعي كمصانع النسيج ومعامل تكرير السكر.

وقد اشتهرت صناعات أخرى في العصر العباسي الثاني كصناعة الورق التي انتشرت في مصر والشام سمرقند، ولكن شهرة سمرقند في هذا الجانب فاقت غيرها في ذلك العصر، وازدهرت صناعة الحديد أيضاً في بلاد فارس.

وقد ترتب على الازدهار الزراعي والصناعي الازدهار التجاري، .فالمنتجات المختلفة تحتاج إلى تسويق، ومن هنا ظهر الاهتمام بتوفير الطرق التجارية المناسبة والعناية بالمواني والأساطيل التجارية، وقد ازدهرت تجارة المسلمين الخارجية في ذلك العصر مع الهند والصين والبلاد الأوربية.

والجدير بالملاحظة هنا أن الإسلام انتشر في بقاع عديدة عن طريق التجار المسلمين، وكانت بغداد ودمشق والإسكندرية وعدن والبصرة من بين المراكز التجارية المهمة في ذلك العصر.

وقد اشتهر عدد من دول العصر العباسي الثاني بالقوة الاقتصادية، ومن بين هذه الدول ـ على سبيل المثال ـ الدولة الصفارية التي يقال: إن مؤسسها «يعقوب بن الليث» ترك في بيت المال عند وفاته ثمانين مليون دينار وخمسين مليون درهم، كما ازدهر أيضاً اقتصاد الدولة السامانية، وهي التي قامت في منطقة تتمتع بإمكانات اقتصادية هائلة، وهي بلاد ما وراء النهر، وكذلك ازدهر اقتصاد الدولة البويهية، أما اقتصاد الدولة الغزنوية فقد وصل مدى رائعاً من القوة نتيجة اتساع أطراف تلك الدولة، وما استطاعت أن تحققه من فتوحات رائعة في بلاد الهند والسند وأفغانستان وغيرها.

وكان النشاط العمراني الواضح ثمرة مباشرة للاستقرار الاقتصادي، فأنشئت الطرق والمدارس والمساجد والقصور والرُّبط في أماكن مختلفة من دولة الخلافة العباسية، ولا يتسع المقام هنا للدخول في تفاصيل هذا الجانب، ولكننا نكتفي ببعض أمثلة قليلة توضح ذلك، وتستحق الدولة البويهية وقفة خاصة هنا، فقد اهتمت هذه الدولة اهتماماً خاصاً بالجانب العمراني، ولاشك أن عضد الدولة كان أبرز ملوكها في هذا الجانب، فقد صرف كثيراً من جهده للعمارة والتشييد في الأماكن التي خضعت لسلطانه في فارس والري وأصفهان والجبال وغيرها، أما بغداد ـ بعد انتقاله إليها ـ فقد حظيت منه باهتمام بالغ، يذكر المؤرخ ابن الأثير في

تناوله لأحداث سنة (٣٦٩هـ = ٩٧٩م) أن عضد الدولة شرع في عمارة بغداد في ذلك العام، وكانت قد خربت بتوالي الفتن عليها، فعمَّر مساجدها وأسواقها. وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدد ما دثر من الأنهار

وأعاد حفرها وتسويتها، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة.. واهتم هتماماً كبيراً بمشهد الإمام علي والإمام الحسين رضي الله عنهما.. وأذن لوزيره «نصر بن هارون» ـ وكان نصرانياً ـ في عمارة البيَع والأديرة.

ومن بين الإنجازات العمرانية المهمة التي قام بها عضد الدولة في بغداد بناؤه لمستشفاه الكبير الذي عرف باسم «البيمارستان العضدي»، وقد كان في هذا المستشفى عند إنشائه أربعة وعشرون طبيباً في التخصصات المختلفة، وكان أشبه ما يكون بالمستشفيات التعليمية الجامعية في عصرنا هذا؛ فقد كانت المحاضرات تلقى فيه، وتدرس فيه الكتب ذات المكانة العلمية، وكان لهذا المستشفى مورد ماء مستمد من دجلة، وله جميع الملحقات التي تزود بها القصور الملكية كما بنى عضد الدولة في شيراز مستشفى آخر عرف أيضاً باسم «البيمارستان العضدي»، وأقام صهاريج الماء في أماكن مختلفة من مملكته. وبنى سوراً حول مدينة الرسول ﷺ.

وتتميز الدولة السلجوقية كذلك بنشاطها العمراني الكبير في مجالاته المختلفة، ويبرز في هذا الجانب بصفة أخص «ملكشاه» ووزيره العظيم «نظام الملك»، فقد أنشأ «نظام الملك» مدارسه النظامية المعروفة، وزودها بكل احتياجات طلابها، ووجد في ذلك كل تشجيع من السلطان السلجوقي المتميز «ملكشاه».

والملاحظ أن النشاط العمراني في دولة الخلافة العباسية في العصر الثاني كان يقوم به في الأساس أمراء وسلاطين وملوك الدول التي كانت تخضع للخلافة العباسية خضوعاً روحياً أو شكلياً، أما الخلفاء ـ بصفة عامة ـ فلم يكونوا بالمكان الذي يجعلهم قادرين في الأمور بصورة مستقلة طوال معظم هذه الفترة.

٣ ـ الجانب الإداري:

كان لضعف الخلافة العباسية المركزية في العصر الثاني تأثير واضح في النظام الإداري في دولة الخلافة، وأوضح مظاهر هذا التأثير يبدو في نظام «الوزارة»، فقد

كانت الوزارة في العصر العباسي الأول ـ بصفة عامة ـ تابعة للخليفة خاضعة لنفوذه، وعندما كان الوزراء يحاولون التصرف بصورة مستقلة كانوا يجدون ما يردعهم من بطش الخليفة، أما في العصر العباسي الثاني فقد اختلف الأمر، وقد استمرت الوزارة في فترة نفوذ الأتراك، ولكن الوزرآء كانوا أكثر استقلالاً ونفوذاً وسطوة وتنامت ثرواتهم لأنهم لم يكونوا يجدون الخليفة الحازم الذي يحاسبهم أشد الحساب، وهذا إذا استثنينا فترة صحوة الخلافة.

فلما كانت السنوات الأخيرة في فترة نفوذ الأتراك بطل منصب الوزارة وحل محله منصب أمير الأمراء الذي جار تقريباً على كل سلطات الخليفة، فلما وقعت الخلافة تحت النفوذ البويهي زال أيضاً منصب أمير الأمراء، فلم يعد هناك للخليفة وزيراً ولا أميراً للأمراء، وتصرف البويهيون في كل شؤون الخلافة تصرفاً مطلقاً وحرموا الخليفة حتى من سلطاته الشكلية، مع أنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء.

وفى فترة النفوذ السلجوقي عاد منصب الوزارة، وأصبح للخليفة وزيره، وللسلطان السلجوقى وزيره، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد السلطان السلجوقى ووزيره، رغم أن السلاجقة عاملوا الخلفاء بما يستحقون من توقير.

وبعد زوال نفوذ السلاجقة أصبح للخلفاء وزراؤهم المستقلون عن نفوذ الخليفة، ولكن الخلافة في هذه الفترة كانت في طريقها إلى الزوال الكامل، ولم تكد دولة الخلافة تتجاوز بغداد وبعض الأقاليم الأخرى المحدودة.

وقد تطور منصب الكتابة في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً، فاتسعت سلطة الكاتب وتنامي نفوذه، وكان الكاتب يرأس ديوان الرسائل الذي كان يعد من أخطر دواوين الدولة العباسية، وكان صاحب هذا المنصب يقوم بكتابة الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد عرضها على الخليفة، وكان ينوب عن الخليفة أحياناً في مكاتبة الملوك والأمراء، على أن من أهم التطورات التي شهدها هذا المنصب في العصر العباسي الثاني أنه لم يعد مقصوراً على الخلفاء بل بدأ الأمراء والسلاطين يتخذون لأنفسهم كتاباً أوسع نفوذاً من كاتب الخليفة.

وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف منصب الخلافة في هذا العصر.

ومع أن العصر العباسي الأول عرف نظام الحجابة فقد تطور هذا النظام كثيراً في العصر العباسي الثاني، فقد كان الحاجب في العصر العباسي الأول يقوم بمهمة أساسية هي حجب العامة عن السلطان، فلا يأذن بالدخول على السلطان إلا لمن يرى أنه يستحق هذا الإذن، أما الحاجب في العصر الثاني فقد تجاوز هذه المهمة المحددة وادَّعى لنفسه سلطات واسعة أصبح ينافس بها سلطات الوزير، وأصبح الحجاب يتدخلون في أهم شؤون الدولة، وقد فتح ذلك مجالاً للصراع بين الحجاب والخلفاء والوزراء.

أما منصب الإمارة على البلدان ـ وهو من المناصب المهمة في النظام الإداري ـ فقد طرأ عليه أيضاً كثير من التطور في العصر العباسي الثاني، فقد كان هذا المنصب منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي الأول يخضع في العادة لسلطة الخليفة؛ فهو الذي يملك حق الولاية والعزل، أما في العصر العباسي الثاني فقد اختلفت الأمور تماماً، ذلك أن الخليفة أصبح يخضع لسلطة عليا من القوى الدخيلة، وهي التي تملك غالباً حق توليته وعزله، وهكذا تدخلت هذه السلطات أيضاً في تعيين الأمراء (أو العمال) في الأقاليم التي تخضع لنفوذهم وكان هذا التطور متمشياً تماماً مع ما آل إليه منصب الخلافة من تدهور في ذلك العصر.

وقد اتسع نظام البريد في العصر العباسي الثاني اتساعاً كبيراً، فقد كانت مهمة البريد في بداية نشأته توصيل رسائل الخليفة إلى عماله وولاته ونقل رسائلهم إليه وكذلك أخبارهم، ثم اتسعت مهمة البريد ـ وبالذات في العصر العباسي الثاني ـ لتشمل أيضاً مراقبة العمال والتجسس عليهم، وأن يقدم صاحب البريد إلى الخليفة تقارير دورية وافية بكل ما يحدث في مكان عمله، هذا إذا كان تابعاً للخليفة، ويفعل الشيء نفسه إذا كان خاضعاً لنفوذ الدول المختلفة التي ظهرت في هذا العصر، ولهذا أصبح نظام البريد في ذلك العصر أشبه ما يكون بقلم المخابرات في عصرنا...

أسباب انهيار الخلافة الإسلامية
في العصر العباسي

يعود انهيار الخلافة الإسلامية إلى عدة أسباب أهمها:

أولاً: نظام الخلافة.

ثانياً: الزواج من الأجنبيات.

ثالثاً: تجنيد الموالي.

رابعاً: حياة الترف والسرف

ضعف الوازع الإيماني وأثره في انهيار الدولة الإسلامية:

إن ضعف الوازع الإيماني قد حاد بالمسلمين عن خطة الإسلام، فالإسلام أقام الإيمان رقيباً على أعمال الإنسان وزوده بدقة الحس في التمييز بين الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين العدل والظلم، وجعل النية الحكم في هذا التمييز، وعلى حكمها يحاسب الإنسان. وقد تعصف الأهواء بالإيمان، فيفقد الإحساس بالخير والعدل والفضيلة، ويصدر حكم النية مشوباً بالشر والظلم وبكل ما يخالف الفضيلة. وقد كان إيمان المسلمين الأولين ناصعاً لا تفسده الأهواء، قوي الإحساس بالعدل وبكل مكارم الأخلاق، فقادهم إلى الفتح العظيم، ودخل الناس في دينهم أفواجاً لما رأوا من صدق دعوتهم. ، وكانوا فيها مثلاً يحتذى، فلما ترف أخلافهم بنعماء الدنيا وأسرفوا في الأطيبين منها، وتعلقوا بأذيالها، وأقبلوا عليها إقبال عاشق غاب رقيبه. وتراخت رقابة الإيمان على أعمالهم فحل الظلم محل العدل، فأخفت صوت الحق، وقضى سيف الظلم على صولته، وأضحت القوة هي الحاكم الذي لا يرد والحكم الذي لا ينقض، وبرز الباطل يختال في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأثرياء، متشحاً بكل مظاهر العبث والمجون، فألهاهم عن مصالح الأمة، فشاع الفساد في الحكم والقضاء والإدارة، وقفز إلى مناصب الدولة

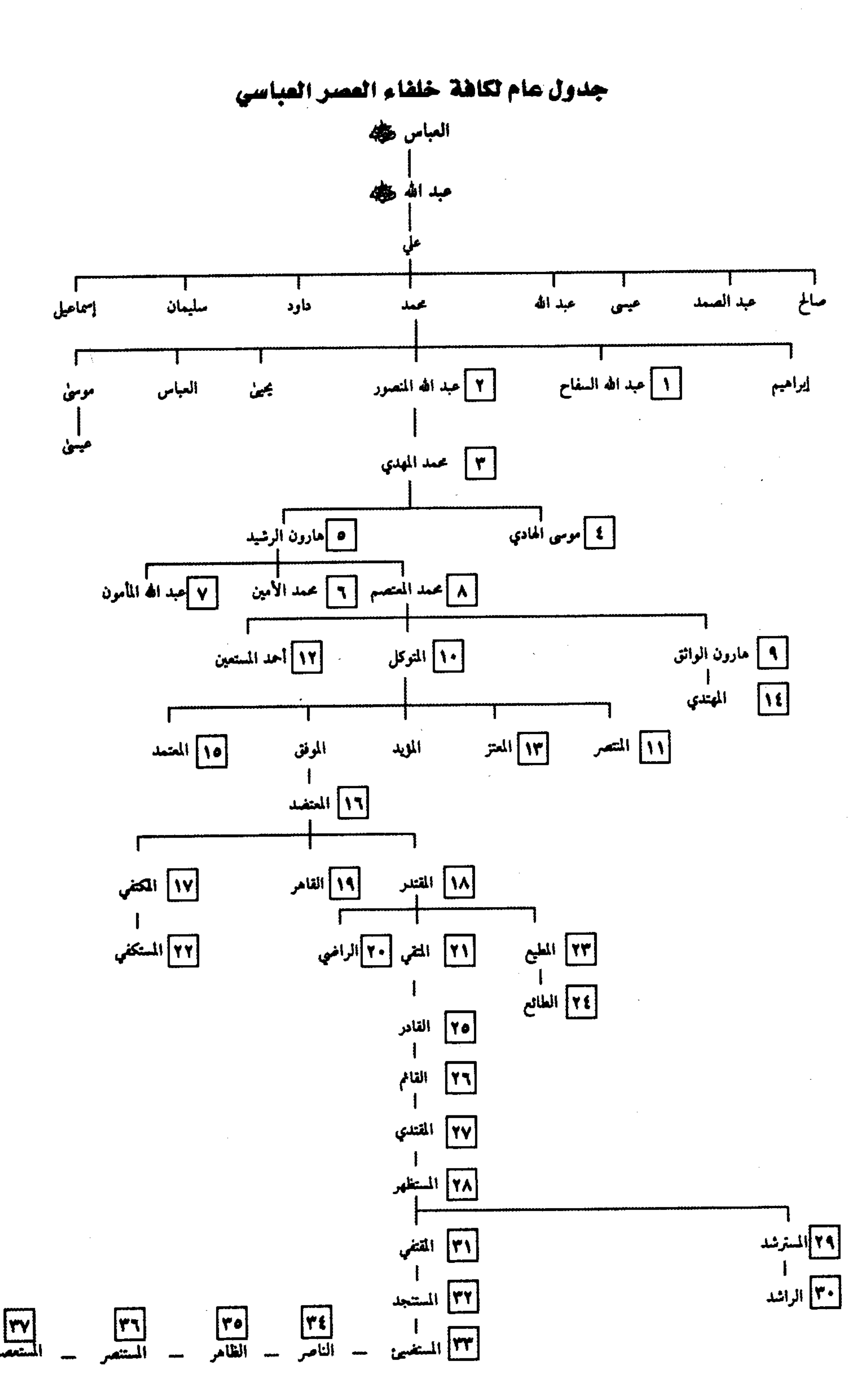
المنافقون ومنهم من اتخذ الدين سلماً للوصول إليها، فساهموا في الإفساد وأعانوا على الظلم، وسادت الفوضى فكانت غنماً للصوص والعيارين، وقامت لهم دولة في بغداد يحميها قادة من الجيش لقاء جزية يتقاضونها مما ينهبون. وعاش عامة الشعب في فقر وخوف، وقهر ومذلة، فضمر ساعده وفقد قدرته على القتال، وخمدت همته، فأضحى في حالة رق فقد فيها قدرته على الإبداع، فأوقفه الزمن عن المسير، وأخذ ينظر إلى الشعوب تتقدمه وهو معقود اللسان ومغلول اليدين، فلا يستطيع حراكا.

إلى هذه الحالة آل أمر المسلمين، في جميع الدول التي تشتت فيها دولتهم، لتساوي العلة فيها. وكأن النبي ﷺ كان يتوقع لهم ما آلوا إليه حين قال: «يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أُفق كما تداعىٰ الأكلة على قصعتها»، قلنا: يا رسول الله أمِن قلة بنا يومئذٍ؟ قال: «أنتم يومئذٍ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن»، قلنا: وما الوهن؟ قال: «حُب الحياة وكراهية الموت»[1].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٣٦٣)، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: ومن حديث ثوبان.

جدول عام لكافة خلفاء العصر العباسي



الخاتمة

أرجوا الله عز وجل أن أكون قد وُفِقتُ في تقديم ما ينفع وأن أكون قد استطعتُ أن أعرض هذا التاريخ العتيق بثوب قشيب جديد، لعلنا نجد في قابل الأيام شباباً يتبنون سِفر هذا المجد العظيم ويعملون على إرجاعه مستلهمين دروس الماضي بلغة العصر وأساليبه ورحم الله القائل:

(أمة لا تعرف تاريخها لن تعرف كيف تبني مستقبلها....).




فهرس الموضوعات

